

محمد عصمت

الممسوس

رواية

الممسوس

الكتاب : المسوس

المؤلف : محمد عصمت

تصميم الغلاف : إسلام علام

تدقيق لغوي : أحمد عبد المجيد

رقم الإيداع : 22133 / 2013

الترقيم الدولي : 978-977-6436-42-8

الطبعة الاولى :2014

الطبعة الثانية : 2014

الطبعة الثالثة : 2014

الطبعة الرابعة : 2014

الطبعة الخامسة : 2014

الطبعة السادسة : 2014

الطبعة السابعة : 2014

الطبعة الثامنة : 2014



20 عمارات منتصر – الهرم - الجيزة

ت-02-35860372 011-27772007

Noon_publishing@yahoo.com

الممسوس

رواية

محمد عصمت



إهـــداء

فكرت في إهداء بلا أسماء ولكنني كنت سأجور علي حقوق العديد ممن ساعدوني ووقفوا بجواري وشجعوني طوال حياتي الكتابية القصيرة..

لذلك أهدي كتابي إلى أبي و أمي وإخوتي أحمد وريهام

ولكل من علمني حرفًا أو قرأ لي حرفًا في أحد الأيـام..

ولذلك أيضًا أهدي كتابي الأول لثلة صغيرة من الأصدقاء الذين شجعوني بجد وتحملوا ترهاتي طوال فترة زمنية تتعدى العام..

أعزائي :محمد رضـــا منيعم
أحمد عبـــد الله
العزيزة/ أميمة مـــاهر
أحمد فكري دخـــان
أشرف ثابت إســـماعيل
سالي الجندي
محمد علي علي
الأمل السوري/ دينا نسريني

و أخيرًا وليس آخرًا أستاذي ومعلمي... الروائي/ عمرو الجندي

إهداء خاص

ملهمتي

إليكِ وحدكِ

فلولاكِ لما خططتُ حرفًا

وبدونك ما عشت يومًا

حياتي و كتاباتي بكِ و لكِ

حبيبتي و خطيبتي، ويومًا ما قريبًا زوجتي إليكِ كتابي الأول

محمد

(٠)

نظرت للمرآة وتأملت قسماتي التي حفر فيها الزمن بمخالبه آثار الهموم والآلام واضحة للعيان.. لن أكذب على نفسي وعليك وأقول إن الأقدار هي التي أوصلتني لنقطة اللا رجوع في مساري.. لقد اخترته بنفسي وطوّعت الأقدار لكي أصل لتلك النقطة وهذه المرحلة.. تجاهلت مئات المخارج وآلاف منافذ العودة للمسار الطبيعي والصحيح.. حاولت أكثر من مرة أن أصححه إلا أن الشهوة التي كنت أشعر بها كانت أقوى مني.. نعم، لم تجعلني الظروف هذا الشخص الذي أصبحت عليه.. لم تكن أقوى مني.. لقد اخترت طريقي بنفسي وعليّ أن أتحمل عواقب اختياري.

تأملت عينيّ التي اقترب ضوء الحياة من الانسحاب منها ليظهر بدلاً منه نظرات شيطانية تلتمع فيها وقد قاربت على الذبول.. عشرات الخطوط السوداء التي تجمعت على جفوني لتُضفي عليّ مظهر المرهق دائمًا.. تجاعيد كثيرة بدأت تظهر على وجهي برغم صغر سني نسبيًا.. لو رأيتني مصادفة وسألتك عن سني لقلتَ بلا تردد إنني قد جاوزت الأربعين بعدة أعوام.. ولكن الحقيقة المرّة أنني قد جاوزت منتصف العشرينات بأعوام قليلة.. رجفة صغيرة تكاد لا تكون ملحوظة انتابت

جسدي منبئة إياي بحركة لا إرادية على وشك الظهور.. تابعت جسدي بنظرة متكاسلة في المرآة.. أنتظرها في أي لحظة الآن.. حسنًا.. لم تتأخر.. شعرت بانتفاضة ذراعي الأيسر للحظات كأنما يجذبه مغناطيس خفي بعيدًا عن جسدي.. لقد تعودت على تلك الحركات الفجائية اللاإرادية.. هي من المضاعفات الجانبية التي سببها لي مرضي النادر.. من فضلك لا تبحث لي عن حجة أهرب بها من واقعي وتقول إن مرضي هو السبب فيما وصلت إليه الآن.. لقد تسببت في مرضي بنفسي.. لولا بعض الإختيارات التي قمت بها لما أصابني هذا المرض.. لا تتعجل، ستفهم كل شيء في موعده.. لن أُخفي عنك شيئًا ولن أقص عليك قصتي بطريقة المضطهد.. قلت لك من البداية إنني وصلت لهذه النقطة بإرادتي الحرّة.. لماذا أرى الرعب في عينيك؟! لقد أخبرتك أنني أحتاجك لدور مهم وحيوي.. لا أستطيع الاستغناء عنك.. حسنًا لا تقلق من فضلك.. وجودك مهم جدًا لخطتي التي تختمر الآن في رأسي.. سوف تكون الأمور كلها على خير ما يرام.. الأوراق التي أمامك مكتوب فيها توثيق حقيقي لكل الأحداث التي مررت بها.. كنت أتمنى أن تجمعني بك الظروف في موقف أفضل من هذا، ولكن ما الذي بيدنا لنفعله!! دورك صغير جدًا بالنسبة لخطتي الكبيرة.. حيوي ولكن صغير يكاد لا يُذكر.. لماذا اخترتك؟! قدرك اختارك، ولكن بالطبع هناك عدة أسباب أخرى ستعرفها عندما تقرأ تلك الأوراق.. سأتركك وحيدًا بمجرد أن

أسمع صوت سيارات الشرطة وهي تقترب.. وسأترك لك الخيار.. إما أن تُسلم تلك الأوراق للشرطة وتترك لهم زمام الأمور أو أن تُخفي الأوراق منهم لتعرف الحقيقة الكاملة وتُخبرهم أنني جئت ورحلت بدون سبب.. الأمر يعود لك!

قد تتساءل لماذا قيدتك وكممتك بهذا الشكل؟! هو أمر غريب حقًا.. كنت قد حجزت ميعادًا مسبقًا مع أحد أشهر الأطباء النفسيين في مصر.. ثم وصلت في موعدي الذي حددته مسبقًا وحرصت أن يكون متأخرًا قدر المستطاع.. دخلت إليك وبعد عدة دقائق أخبرتك أن مشكلتي قد تحدّثَ عنها أحد الكتب بالتفصيل وطلبت منك الكتاب، وبمجرد أن التفتّ لمكتبتك باغتك وقيدتك وكممتك بهذا الشكل.. ولكن يكفي أن أقول لك إن بمجرد قراءتك لتلك الأوراق ستفهم كل شيء، وستشكرني حقًا على تركك.. هاهي.. سمعت؟! سيارات الشرطة وصلت بالأسفل.. المصعد معطل بفعل فاعل.. بالطبع لا يخفى عليك المجهول الذي تسبب في إفساده.. هي بضع دقائق تافهة ولكنني أحتاجها حقًا.. سترى الآن شيئًا لن تنساه طوال عمرك وسيطاردك كثيرًا في أحلامك.. إلى اللقاء يا عزيزي.. لقد فككت يدك اليمنى.. انتظر الشرطة أو تناول الملف من أمامك وأخفِه بعيدًا.. القرار لك الآن!!

افتحم المقدم طارق العيادة شاهرًا مسدسه أمامه وهو يمسح الغرفة بعينيه، ويتأمل الطبيب المقيد في كرسيه زائغ النظرات وهو يهمهم بكلمات يحجبها الشريط اللاصق الموجود على فمه.. مدّ يده وهو يحاول أن يُخفي رعشة واضحة ونزع الشريط اللاصق بحركة سريعة.. نظر الطبيب إليه في رعب ومقلتاه تدوران في محجريهما قبل أن يقول: "لقد كان هنا!! كان هنا!! اختفى!! اختفى!!"

"اهدأ قليلاً وأخبرني من الذي كان هنا، ولماذا قيدك بهذا الشكل؟"

حانت من الطبيب التفاتة إلى الملف الذي ألقاه بحركة سريعة تحت مكتبه قبل أن يقتحم طارق العيادة بلحظات قليلة، وهو يقول: "بسم الله الرحمن الرحيم.. كان هنا واختفي"

(١)

لا أعرف حقًا من يقرأ تلك الأوراق الآن.. سأكون كاذبًا إذا أخبرتك أنني حقًا أهتم.. لا يهمني الأمر بقدر ما يهمني أن يكون هناك من يقرأها الآن.. هل أنت رئيس المباحث الذي أتى على رأس القوة التي اقتحمت العيادة؟ أيًا كان اسمك أو رتبتك يجب أن تعرف أن قدرك قد اختارك لهدف معين ستفهمه بمجرد انتهائك من قراءة تلك الأوراق.. ترى هل أنت الدكتور شاكر؟ حسنًا، لو أنك الطبيب أعتذر لك بشدة عما فعلت، ولكنني أعدك أن تفهم كل شيء.. ترى هل أنت أحد غيرهما؟! لا يهم.. المهم حقًا أن تستوعب دورك في نقل تلك الرسالة لمن هم بعدك.. يجب أن تتعامل مع تلك الأوراق بجدية وحرص وألا تستهزأ بها.. يكفي أن أصف لك المشهد لكي تدخل معي في سياق الأمر فقط، ومن بعدها سأسترسل في الحديث وعليك تتبع أفكاري.. تخيل الآن أنني أقف أمامك أرتدي قميصًا أسود وبنطالاً أسود وقبعة سوداء.. أقف في الظلام أتأمل المكان من حولي.. بالطبع أنا أقف في المقابر.. غرفة اللّحاد تحديدًا.. تخيل أن ضوء الغرفة مغلق.. وأنني أقف وحيدًا في هذا الظلام.. أين اللحاد؟! ومن أين أتى خيط الدماء الدافئ الذي يتسلل على الأرض من جواري برأيك؟ لقد تسللت إلى غرفته بهدوء وضربته على رأسه لكي أفقده وعيه فقط.. لا أعلم مصيره الآن، وبصراحة شديدة لا أهتم.. رفعت قدمي اليسرى لكي أتجنب خيط

الدماء اللزج وأنا أتأمل اللّحاد الراقد على فراشه والدماء تتجمع حول وسادته، قبل أن أتخذ قراري بالبدء في مهمتي التي أتيت من أجلها.

أمشي الآن وحيدًا وسط الظلام الدامس المخيّم على كامل المنطقة كأنما هو وُجد معها.. يُخيل لي أنني لو أتيت إلى تلك المنطقة ظهرًا لوجدت الغيوم تُحاصرها حتى لتحيلها ظلامًا دامسًا.. أمشي في الظلام ببطء.. يخيل لي أن الوقت أيضًا قد أبطأ ليجاريني.. لا أعلم أهي أوهام أم شيء آخر، ولكن أكاد أقسم أنني أرى الرمال وهي تقفز من على الأرض الترابية نتيجة خطواتي المتثاقلة.. لو أنني وجدت نفسي هنا في موقف أو وقت آخر لتوقف قلبي فزعًا، ولكن الغضب الذي يعتمر بداخلي كأنما قد أوقف مشاعري الإنسانية الأخرى من خوف أو توتر.. أكاد أشعر أنني إحدى عرائس الماريونت التي يتحكم بها شيطان الغضب بمهارة بين أصابعه الشيطانية.. خطوات متثاقلة يقودها غضب عارم.. اتجهت بهدوء إلى القبر الذي أحفظ مكانه عن ظهر قلب.. مددت يدي إلى حقيبة صغيرة مربوطة حول خصري.. عبثت فيها بأصابعي للحظات قليلة قبل أن أصل إلى مبتغاي.. أخرجت كشافًا صغيرًا وأنرته لأتأكد من الاسم المنحوت على القبر.. تأملت الاسم مليًا قبل أن أغلقه وأعيده إلى مكانه.. وقفت ثابتًا للحظات أستمع لصوت حفيف الريح بين الأشجار المحيطة بالمقابر.. الصوت الأكثر إرعابًا صوت الخطوات التي تتردد من حولي.. لم ألقِ لها بالاً.. لقد أتيت في مهمة محددة سأتمّها وأرحل.. شعور الخوف متوقف ذاتيًا.. ربما أشعر في الغد بفداحة الأمر، ولكن اليوم؟! لا أعتقد.. جلست على الأرض على

ركبتيّ وبدأت أُزيل التراب عن باب القبر.. لم يكن التراب كثيفًا، فالجثة الموجودة في القبر قد دُفنت اليوم.. حاولت فتح باب القبر بيدي إلا أنني لم أستطع.. أخرجت من الحقيبة الصغيرة عصا صغيرة من الصلب وأخذت أدق بها بإلحاح على باب القبر، إلى أن لاحظت بوادر من الأمل.. ربما لو رأيت الأمر لتوقف قلبك فزعًا.. شاب لا يتجاوز العشرين من عمره ينبش أحد القبور بيده في الظلام الدامس بعد منتصف الليل.. أخيرًا استجاب باب القبر لطرقاتي.. أزحت المزيد من التراب بيدي قبل أن أعتدل وأنزل إلى القبر بنفسي.. لا أعلم حتى الآن كيف فعلتها!! وقفت بداخل القبر.. كان فسيحًا نوعًا ما.. تأملت الأبواب قبل أن أتخذ قراري وأتجه إلى غرفة دفن النساء.. دخلت الغرفة وأنا أشعر برجفة خفيفة تنتاب جسدي.. رائحة غريبة تخيم على الهواء هنا.. برودة غريبة تعمّ المكان.. برودة الموت.. انحنيت على الجسد المسجى على الأرض للحظات.. شعرت بصوت خطوات يقترب من المكان بإصرار.. رفعت رأسي للأعلى أتأمل سقف المقبرة وأرهفت السمع جيدًا.. خَفَتَ صوت الخطوات.. رفعت الجثة من على الأرض وحملتها على كتفي.. لم تكن ثقيلة.. مشيت أربع أو خمس خطوات قبل أن أسمع الصوت يقترب بسرعة كأنما صاحبه يركض.. في حركة لا إرادية أسرعت الخطى وأنا أقترب من باب المقبرة إلا أنني فوجئت أنه أُغلق بدوي مفزع.. صوت الحديد وهو يصطدم ببعضه شق سكون الليل بعنف.. بدون أن أعي انزلق الجسد من على كتفي للأرض.. شعرت أنني سمعت آهة ألم من الجسد الميت.. تبًا.. يجب أن أرحل من هنا

سريعًا.. لقد بدأت أعصابي تتوتر وبدأت أصابع الخوف تنهش مشاعري.. مشيت إلى الباب بعد أن أخرجت العصا الصغيرة.. دفعت الباب بالعصا بحرص.. انفتح بهدوء ولم يتغير شيء.. مددت رأسي خارج الباب وتلفت يمينًا ويسارًا.. لا شيء!! فتحت الباب مرة أخرى وتأكدت من تثبيته هذه المرة بقطعة من الحجارة.. حملت الجسد مرة أخرى وإن لاحظت رعشة يدي.. حاولت التماسك وأنا أخرج من باب المقبرة.. ترى هل أغلق الباب خلفي؟ من المؤكد أن الشرطة ستكون هنا في الغد الباكر.. حسنًا.. سأغلق الباب ولكنني لن أحكم إغلاقه.. أهو كسل أم تكاسل أم شهوة التلاعب بالشرطة؟ لا أعلم.. حملت الجسد على كتفي ومشيت بخطى متثاقلة أشق الظلمات وأنا أشعر بجرم كبير يحيط بكاهلي وينبئني أنني بدئًا من هذه اللحظة لست إنسانًا طبيعيًا ولن أكون مرة أخرى.

*****

توقفت بالسيارة في ذلك المكان المهجور المظلم.. هذا المكان الذي يشبه إلى حد كبير نفسي الموحشة.. اخترت هذا المكان خصيصًا لأنه يقع في منطقة نائية.. المكان بأكمله لا يوجد به سواي تقريبًا.. نزلت من السيارة.. أخذت نفسًا عميقًا ثم اتجهت إلى صندوقها.. فتحته وتأملت الجثة الموضوعة به بإهمال.. حملتها على كتفي.. لقد كانت شبه عارية الآن.. لم أهتم كثيرًا لهذا الأمر في الواقع.. أغلقت الصندوق واستدرت أتأمل العمارة المهجورة التي تقف وحيدة في الظلام.. اتجهت إلى بوابتها

الحديدية التي تبدو جديدة نسبيًا مقارنة بكل ما يحيط بها من أطلال مهدمة.. فتحت البوابة وتأكدت من إغلاقها خلفي جيدًا قبل أن أصعد بهدوء على السلم الذي تهدم أغلبه.. حركة خافتة من خلفي فاجأتني.. التفتُّ خلفي بعنف قبل أن ألمح شيئًا ما يتواري في أحد الشروخ التي تملأ الحائط كلوحة سيريالية.. استكملت طريقي وسط الهدوء الذي لا يقطعه إلا صوت طرقات كعب حذائي على السلم المهدم.. وصلت للشقة المنشودة.. فتحتها وتركت بابها مفتوحًا في محاولة لاستقطاب أي ضوء ولو كان قليلاً.. وضعت الجثة على المنضدة التي تتوسط صالة الشقة وعدلت من وضعها حتى توسطت المنضدة.. أغلقت باب الشقة وأخرجت قداحة صغيرة وبحثت بضوئها الخافت المتواضع عن الكيس الصغير الذي وضعت فيه الشمع.. شمع أسود صُنع خصيصًا ليناسب طلبي.. عشرون شمعة.. وضعتها في تشكيل محدد حول الجثة وانهمكت في إشعالها الواحدة تلو الأخرى، إلى أن أشعلتها جميعًا.. الآن أواجه أسوأ مخاوفي.. وحدي في مكان مغلق مع جثة وسط أضواء الشموع الخافتة وخيالاتها المتراقصة..أكثر من ألف فكرة وفكرة هاجمت خيالي ونجحت بالفعل في إثارة خوفي إلا أنني كنت أحاول التماسك.. عدلت من وضع الجثة على المنضدة أكثر حتى اتخذت الوضع الذي أفضله لها.. وضع التحنيط عند المصريين القدماء.. مستلقية على ظهرها.. حرصت على فتح عينيها.. تضع يديها بشكل متقاطع على صدرها وإن كانت الآن عارية تمامًا.. قد تنتابك الآن الشكوك بأنني مريض بالنيكروفيليا - مرض مضاجعة الموتى -- حسنًا،

أؤكد لك أنني لست مريضًا بهذا المرض، وإن كنت مريضًا بمرض آخر شديد الندرة.. يدعى مرض"كورو".. لكن ما الذي يدفعني لسرقة جثة امرأة وتعريتها تمامًا والانفراد بها في مكان كهذا؟ نظرة واحدة إلى الصورة التي توسطت الحائط وسط تلك الدائرة التي رُسمت بالدم الأحمر القاني.. الدم البشري.. لتكتشف أن المرأة المسجاة على المنضدة الآن تحتضنني في الصورة ومكتوب تحتها على الحائط بالدم أيضًا "عيد أم سعيد".. نعم إنها جثة أمي.. أحضرتها هنا لسبب واحد فقط.. انطلقت الشموع تنطفئ إحداها تلو الأخرى، ومع آخر لهب ينطفئ من آخر شمعة ستسمعني أهمس "من أجل الانتقام".

(٢)

أنت الآن تعلم أني أجلس وحيدًا في الظلام الدامس مع جثة أمي المسجاة على المنضدة وسط الشموع المطفأة أفكر في الأمر الذي وصلت إليه.. من فضلك لا تحكم قبل أن تسمع القصة كاملة.. وبعد أن تسمعها كاملة فلتحكم أو لا تحكم، فلن يهمني الأمر كثيرًا.. الضوء الخافت يقتحم الشباك المغلق من بين ثنيات الشيش.. بدأ الضوء يتسلل للشقة فبدأت تنير شيئًا فشيئًا.. اعتدلت في جلستي وتحركت.. شعرت بألم جراء جلستي على الأرض بلا حراك طوال الليل.. سحبت كرسي من جوار الحائط وجررته إلى ما أمام الجثة التي بدأ لونها يتغير للون الرمادي المشبع بالزرقة.. اللون الذي أضفى عليها بشاعة كبيرة.. نظرت إلى عينيها المفتوحتين وأنا أقاوم شعورًا بالغضب يجتاحني.. وأنا أتذكر كيف وصل بي الحال إلى هنا.. هي السبب!! لا أستطيع أن أنكر أنها السبب.. هي أيضًا وهي على فراش الموت اعترفت لي أنها السبب في كل ما حدث.. الأمر لا نقاش فيه.. حسنًا.. سأقص عليك الأمر منذ البداية.. بدأ الأمر بشجار بين أبي وأمي.. كان أبي عصبيًا جدًا.. تقريبًا بلا سبب.. لو أنك تنفست أمامه لانفجر فيك غضبًا.. كيف تتنفس؟! ستزيد نسبة ثاني أكسيد الكربون في الهواء.. أبي تزوج أمي عن قصة حب ملتهبة.. حاول أن يتقدم لها إلا أن جدي وخالي الكبير رفضا.. لم ييأس وأعاد الكرة مرة واثنتان وثلاثة.. في المرة الرابعة وقفت أمي لتتحدى أهلها.. لأول مرة يعلو صوتها على صوت جدي.. لأول مرة

تتحدى إرادة خالي الأكبر.. لأول مرة تشعر بأنها لن تتراجع عن حقها.. الجنة أمامها وهم يحاولون منعها من بلوغها.. جنتها الخاصة.. مرض جدي حزنًا على موقف أمي.. تدهورت صحته بشدة.. دخل إلى غرفة العناية المركزة.. طلبوا طبيبًا من أشهر الأطباء في مصر.. قضى معه الطبيب أكثر من أربع ساعات بداخل غرفة العمليات.. خرج بوجه مكفهر أسود ليعلن أنه قد فعل ما عليه ولكن الحالة ميئوس منها، ولم يستمر جدي في غرفة العناية أكثر من أيام لا تتعدى الأسبوع.. اختاره ربه الكريم لجواره.. تُوفي جدي وأُعلن الحداد.. بعد أيام الحداد الثلاثة وحتى قبل أن يُتمّ جدي أسبوعه الأول اجتمع خالي الأكبر مع أمي وأبلغها قراره الذي اتخذه مع جدي – رحمه الله – قبل وفاته مباشرة.. فلتذهبي إليه وتتزوجيه.. بدءًا من اليوم أنتِ لستِ جزءًا من أسرتنا.. هكذا بكل سهولة ويسر وفي جملة لم تتعدّ العشر كلمات لفظتها عائلتها.. تخلوا عنها بعد أن رأوا فيها قاتلة رب الأسرة.. لم تستطع أمها أن تنظر إليها أو تودعها وهي ترحل مع والدي خارج العائلة تمامًا.. شعور قاتل بالذنب تمكن من أمي.. والذي زادها مرضًا على مرضها هو عدم حضور أي من أقربائها أو عائلتها للحفل البسيط الذي زُفت فيه إلى أبي، وكأنما رسميًا قُطعت أواصر القرابة بينهم.. ذبلت أمي مبكرًا.. متحملة أبي لعام تلو الآخر.. إلا أنه في لحظة معينة تغير تمامًا.. من النقيض إلى النقيض تمامًا.. اختفت الرقة وضاع الحنان.. دفء المشاعر انقلب لبرودة تامة.. أصبح عصبيًا جدًا وأصبح شديد الانفجار.. لم يكن يتحمل أن يراها تبكي.. ولم تكن تتحمل أن

تراه يصرخ فيها.. معادلة مستحيلة لأنه كلما صرخ بكت وكلما بكت صرخ أكثر.. استمر الوضع يزداد من السيء إلى الأسوأ.. أصبح لا يطاق وأصبحت لا تحتمل، وأهملني كلاهما.. كنت وقتها قد تجاوزت العاشرة بقليل.. اتجهت تلقائيًا لاتخاذ وضع الدفاع.. أصبحت أجلس وحيدًا.. آكل وحيدًا.. أنام وحيدًا.. حياتي انقلبت تمامًا لوحدة كاملة برغم مئات المشاجرات التي كانت تحدث خارج غرفتي، إلا أنني كنت أُطفئ ضوء الغرفة وأجلس على سريري في الظلام لا أتحرك لساعات طويلة.. لم يهتم بي كلاهما كثيرًا.. هو مشغول بالتفكير في أساليب جديدة ليفتتح بها الشجار.. وهي غارقة وسط دموعها التي لا تنتهي أبدًا.. كان كلّ منهما كلما يراني يصيح بي.. أبي يصيح بي لمجرد تغيير أسلوب الشجار.. وأمي تصيح بي لأنني بعيدٌ عنها.. لم أكترث كثيرًا لكلاهما.. ما كان يهمني حقًا هو توقف كل هذه المشاجرات.. كل هذا الصياح.. الطاقة السلبية والغضب اللذان أحاطا بالمكان.. بدأت تزحف إلى كياني مشاعر من نوع خاص.. مشاعر ضد الفطرة.. هي خليط من الغضب والبلادة وعدم الاهتمام.. نعم تربعت على عرش عقلي الباطن وأطاحت بالحب والرعاية والتقدير.. كلما دخل أبي إلى المنزل ألزم غرفتي لا أخرجها إلا بعد رحيله.. إذا سمعت صوت الشجار والصياح المتبادل أُطفئ ضوء الغرفة وأتظاهر أنني لا أستمع إلى شيء.. يومًا بعد يوم بدأت أعتاد الأمور حتى جاء اليوم المنشود.. اليوم الذي غير مجرى حياتهما وبالتالي مجرى حياتي، بدون أن أعي ما حدث في ذلك اليوم.. سمعت صوت الباب يغلق بعد انتهاء الشجار.. هذه المرة كان الشجار أعنف.. أعتقد

أنه أعنف شجار حضرته بينهما.. قمت من مكاني في الظلام وفتحت ضوء الغرفة وخرجت لأفتح الباب.. كانت أمي تجلس على الكرسي المواجه لباب غرفتي.. تلاقت أعيننا للحظات قليلة قبل أن أدير ظهري وأرحل بهدوء، لأعود إلى فراشي مرة أخرى.. قبل أن أسمع صوتها حزينًا خافتًا من بين دموعها.. تسمرت مكاني للحظات قبل أن أستدير لأواجهها.. عيناها منتفختان وأنفها أحمر.. شعرها مبعثر حول رأسها الجميل.. لونها يكاد يقترب بشدة من اللون الأصفر.. اتجهت إليها بخطوات بطيئة واقتربت منها.. جذبتني بعنف من يدي وألقت بي في أحضانها.. ضمتني إليها بشدة وهي تبكي.. بدأت أشعر بخلخلة جدار اللامبالاة الموجود في أعماقي.. بدأت أشعر بنوع من الشفقة تجاهها.. استمرت تبكي وهي تضمني إلى أن سمعت صوت مفتاح يدور ببطء في باب الشقة.. جذبت نفسي من بين أحضانها متجاهلاً عينيها التي تستعطفني لأبقى.. أسرعت إلى غرفتي قبل أن أسمع صوت أبي من خلفي ينبئني أن: "سيأتي دورك".. تجاهلت صراخه فيّ وأنا أغلق ضوء الغرفة وأغلق الباب، قبل أن أجلس على فراشي وأنا أضع يديّ في أذنيّ وأدندن بلحن أغنية قديمة علق في رأسي في محاولة لتجاهل الشجار.. صوت الشجار يعلو وأنا أحاربه بطبقات صوت طفولي لا تستطيع التغلب عليه.. رعشة خفيفة تنتاب جسدي مع برودة أشعر بها في عمودي الفقري.. شيء ما ينبئني بأن تلك الليلة لن تمر على خير.. أسمع صوت أمي يعلو للمرة الأولى.. صراخها يغلب عليه الجنون.. أتحرك ببطء شديد حتى لا يشعرا بي.. اقتربت من الباب وفتحته

بهدوء.. تأملت المنظر من فتحة الباب الضيقة.. يقفان أمام بعضهما ويصرخان في آن واحد.. لا أعتقد أن أحدهما يسمع الآخر.. الصوت أوضح من ذي قبل.. وهذه المرة لم أحاول منعه بل أخذت أنصت السمع جيدًا.. هذه المرة أخذت أشاهد.. لا أدري السبب ولكنه إحساس دفين بداخلي يخبرني بأن تلك المرة مهمة جدًا.. الغضب يبدو جليًا على ملامحه بينما الجنون يحفر علاماته على وجهها بوضوح.. النقاش يحتد والصوت يعلو.. صفعة على وجهها بعنف أخرست النقاش.. ساد الهدوء للحظات.. توقف الزمن وماتت فيها أحاسيس كثيرة.. الغضب الآن هو سيد الموقف.. لم ينتظر رد فعلها.. أعطاها ظهره ومشى نحو الباب ببطء مستفز.. دون أي كلمة ودون أي رد فعل.. اتجهت بجنون إلى التمثال الذي يتوسط المنضدة الكبيرة وتناولته وبضربة واحدة أسقطته تحت قدميها وبركة من الدماء تتسع من حوله.. توقعت أن تنهار.. أن تُصدم.. أن يُغشي عليها.. إلا أنها انحنت عليه مرة أخرى وانهالت ضربًا بالتمثال على رأسه.. قطرات الدماء تتناثر هنا وهناك.. قطع من اللحم الصغير تتطاير على وجهها.. للحظات تسمرت مكانها قبل أن تلتفت لي بهدوء.. وجهها المليء بالدماء أثار هلعي خصوصًا وأن الجنون يبدو جليًا على قسماتها.. أغلقت الباب بسرعة وأنا أتمنى ألا تكون قد رأتني.. جلست بجوار الباب أنشج وأنا أضع يديّ على فمي في محاولة لكتم صوتي.. سمعت المفتاح يدور بهدوء في باب غرفتي.. لقد أغلقت عليّ باب الغرفة.. صرت حبيسًا هنا تحت رحمتها.. يبدو أن دوري قادم بالفعل!!

(٣)

لا أدري أمرت ساعات أم لحظات قبل أن أسمع صوت المفتاح يدور في الباب مرة أخرى.. كنت قد سقطت فريسة النوم جوار الباب وأنا أبكي.. فتحت الباب ببطء وأنا أتأمل المنظر خارجه قبل أن أراها وقد استحمت وبدلت ملابسها.. أهذه أمي؟! إنها تبتسم لأول مرة منذ عرفتها! هل كنت أحلم بما حدث بالأمس؟! هل كان كل هذا كابوسًا واستيقظت منه؟ رغمًا عني بادلتها الابتسامة وأنا أنظر في عينيها المشرقتين المليئتين بالسرور.. هنا تيقنت تمامًا أنني إما كنت أحلم أو أنني الآن أحلم.. أشارت لي بالاقتراب.. اقتربت بخطوات مرتعدة وأنا أتوخى الحذر خوفًا من أي مفاجأة قد تحملها لي.. جلست على الأريكة وهي تشير لي بالاقتراب أكثر بابتسامة شجعتني أكثر فأكثر.. اقتربت وجلست جوارها على الأريكة فاحتضنتني بشدة كأنما كنت غائبًا عنها منذ زمن.. أخيرًا أراحت رأسي على صدرها وأخذت تعبث بشعري وهي تدندن أغنية غريبة لم أسمعها من قبل.. قبل أن تعتدل فجأة وتبدو عليها علامات الجدية والصرامة للحظات قليلة، استعادت بعدها ابتسامتها الحنون وهي تسألني بصوت خافت رقيق: "منير.. هل رأيت شيئًا بالأمس وأنت تقف بجوار الباب؟"

"لم أرَ شيئًا.. رأيتكما تتشاجران فأغلقت باب غرفتي وذهبت لفراشي".

خفت أن أبوح لها بما رأيت.. ربما خشيةً على نفسي وربما خشيةً عليها من جنونها.. التزمت الصمت وأنا أحاول جاهدًا ألا تتلاقى عينانا لكي لا ينكشف سري.

"ألم تسمع صياح أبيك بالأمس؟! ألم تسمعه وهو يهددنا بعدم المجيء مرة أخرى؟! ألم تسمعه يخبرني بأنه سيهجرنا للأبد؟"

للحظة التقت عيناي بعينيها في نظرة ذهول غير مصدقة لما أسمعه.. حسنًا، إنها بالتأكيد لعبة، فلألعبها معها.. وبالتأكيد أمي لن تكذب!! ربما أنا تخيلت أو حلمت بالأحداث.. ما هذه الحيرة؟ أفكار كثيرة دارت داخل رأسي الصغير، لكن فكرة واحدة احتلت رأسي وأخذت تكبر شيئًا فشيئًا لتضع باقي الأفكار في ركن مظلم بعيد.. التقت عيناي الصغيرتان بعينيها المشرقتين قبل أن تغلبني ابتسامتي وأنا أقول لها: "هل الإفطار جاهز؟ أنا جائع!"

"بالتأكيد سنتناول الإفطار.. بل إنني سأحضر لك مفاجأة صغيرة.. سنتناول اللحم المشوي".

"لحم مشوي على الإفطار؟! هل أتى العيد؟"

ضحكنا معًا للحظات قبل أن تتجه للمطبخ وتتركني أمام التلفاز وقد تبخرت كل المخاوف والشكوك من رأسي.. بالتأكيد هذا الحلم السخيف الذي رأيته سأنساه سريعًا.. لحظات وتسللت رائحة الشواء

تدغدغ أنفي لابتسم تلقائيًا وأنا لا أرفع عينيّ عن التلفاز.. دقائق وجلست بجواري تحمل بضع شطائر تنبعث منها رائحة الشواء.. تناولت إحداها وقضمت منها قطعة كبيرة وأخذت ألوكها وهي تنظر لي بتركيز، وما إن ابتلعتها حتى بادرتني بالسؤال: "هل اللحم جيد؟"

"جيد جدًا وإن كان صلبًا بعض الشيء.. أقصد أنه لا يُمضغ بسهولة".

"بالتأكيد بسبب تغييرنا للجزار.. إن لم تعجبك سنعود للشراء من الجزار القديم".

هززت رأسي في تفهم وأنا مندمج في الشطيرة الشهية، وانتقت هي شطيرة من الشطائر وقضمتها في تلذذ.. تأملت ملامحها وهي تلوكها في بطء محاولة أن تتلذذ منها أكبر قدر ممكن.. نهم غريب فاجأني وبريق يلمع في عينيها أراه لأول مرة.. كانت كالمجنونة، إلا أنني لم أعطِ الأمر اهتمامًا كافيًا.. نظرت لها مرة أخرى وسألتها: "هل هدد أبي بالفعل بعدم العودة لنا؟!"

نظرت لي للحظات بدون رد، قبل أن تقول: "أجل.. ألم تسمعه؟"

انتابتني الحيرة للحظات ما بين رفض الأمر أو تصديقه، إلا أنني غلبتني مشاعر حبي لها في النهاية: "بالفعل سمعته.. هل لي بشطيرة أخرى؟"

"حسنًا يا صغيري.. سأحضرها من المطبخ فورًا".

اتجهتْ إلى المطبخ، وجلستُ على الأريكة أتابع التلفاز في صمت قبل أن ألمح بطرف عيني شيئًا يلمع تحت الأريكة المقابلة لي.. اتجهت بحذر وأنا أنظر خلفي خوفًا من أن تخرج من المطبخ لتضبطني متلبسًا.. مددت يدي المرتعشة وأنا أنظر تجاه المطبخ.. بحثت بيدي للحظات.. لم أجده.. أبعدت نظري عن باب المطبخ ونظرت أسفل الأريكة.. ها هو.. أمسكته في يدي وأنا أتفحصه.. إنه الخاتم الفضي الذي كان أبي يرتديه باستمرار.. قمت لأعود إلى مكاني مرة أخرى، ففوجئت بأمي تقف خلفي.. كيف وصلت هنا بدون أن أسمعها؟! وكيف وصلت بهذه السرعة؟! هل يعقل أنني لم أسمعها أو أنني أطلت النظر في تفاصيل الخاتم؟! أمسكت يدي قبل أن أخفي الخاتم وقالت لي: "ما الذي تحاول إخفاءه؟"

"إنه.. إنه خاتم أبي".

"أين وجدته؟!" اشتعلت عيناها غضبًا.. شعرت أنني قد اقترفت جرمًا عظيمًا مما زاد توتري.

"كان.. كان أسفل تلك الأريكة.. ربما سقط من أبي قبل.. قبل أن يرحل".

"ربما.. أعطني إياه".

"أرغب في الاحتفاظ به بعد إذنك يا أمي".

"لماذا يا صغيري تريد أن تحتفظ به؟"

"ربما أفتقد أبي.. أريده أن يذكرني به إذا افتقدته".

احتضنتني بقوة بعد هذه الجملة كأنما الكلمة قد مست جرحًا شخصيًا بها.. نظرت لي بعينين دامعتين قبل أن تهز رأسها دلالةً على الموافقة.. غلبتني دموعي وأنا أسألها للمرة الأخيرة في محاولة طفولية مني لتغيير الإجابة:

"ألن يعود أبي مرة أخرى؟"

"يا منير، أحيانًا تجبرنا الحياة على فعل أشياء لا نرغب بها مهما أغرتنا بعد ذلك بتصحيح المسار.. تكون مجرد محاولات منها لتوقعنا في الفخ قبل أن تنظر لنا وتخرج لنا لسانها في استفزاز، وهي تقول لنا إننا أخذنا طريقًا باتجاه واحد.. ذهاب بلا عودة.. لا تراجع.. واجهوا أقداركم".

"لم أفهم شيئًا مطلقًا".

" عندما تكبر ستفهم كل شيء".

"لا أريد أن أكبر.. الراشدون يتعاركون طوال الوقت.. لقد قررت ألا أكبر وأريدك أنتِ أيضًا أن تصغري".

ابتسمت وهي تتابع عينيّ الصغيرتين اللامعتين بفعل النشوة الناتجة عن الشبع.. تناولت باقي الشطيرة من يدي وتأملتها قبل أن تنتزع من داخلها قطعة اللحم المشوي وتضعها في فمي، وتنظر لي بابتسامة حنون وأنا ألوكها ببطء.. عدت لأتابع التلفاز مرة أخرى قبل أن تتجه هي إلى المطبخ.. دخلت إلى المطبخ المزدحم بعشرات الأكياس الممتلئة باللحم.. كانت أمي ككثير من الأمهات المصريات تُقطّع اللحم إلى مكعبات صغيرة قبل أن تضع كل كيلو أو يزيد في كيس بلاستيكي تمهيدًا لوضعه في الثلاجة.. ولكن كمية اللحم الهائلة هذه حقًا كثيرة.. نادت عليّ بصوت مرتفع فاتجهتُ إلى المطبخ ونظرت بداخله، قبل أن أسمعها تقول: "انظر.. لقد اشتريت لك كل هذا اللحم لأنني أعرف أنك تحب اللحم كثيرًا".

"ماذا تعنين؟!"

"أعني أننا سنأكل اللحم كل يوم ولفترة طويلة".

"شكرًا يا أمي".

"حسنًا.. الآن اذهب لتشاهد التلفاز بالخارج".

خرجت من المطبخ بخطوات فرحة مسرعة إلى حيث يقبع التلفاز وجلست أتابع الصور المتحركة على شاشته، وأنا كل تركيزي على اللحم الذي أعشقه.. بداخل المطبخ كانت أمي تجمع العظام في حقيبة

بلاستيكية.. خرجت أمامي تحمل الحقيبة وهي تبتسم، وقالت إنها ستنزل لتلقيها في الشارع، كما أخبرتني ألا أفتح الباب لأي شخص حتى تعود هي من الخارج.. لم يكن هذا هو سبب دهشتي الشديدة.. وإنما كان سبب دهشتي الأكبر هو تلك العظمة الطويلة التي تبرز خارج الحقيبة.. للحظات أخذت أتخيل شكل البقرة وتوزيع عظامها. قبل أن يتشتت تركيزي لأعود لمتابعة شاشة التلفاز مرة أخرى.

(٤)

مرّت سنوات على تلك الحادثة.. في الحقيقة لا أعلم هل تناسيتها أم نسيتها.. مرت سنوات طويلة.. عشر سنوات بالتحديد.. في صباح مشؤوم استيقظت مبكرًا على غير العادة بسبب الرنين المتواصل المزعج لهاتفي المحمول.. تناولته بيدي وتأملت شاشته بنصف عين لأعرف من المتصل في مثل هذا الوقت.. رقم غريب.. حسنًا.. ضغطت زر رفض المكالمة وتمددت على الفراش في محاولة عابثة للعودة للنوم مرة أخرى.. لم تمضِ ثوانٍ قليلة حتى رنّ مرة أخرى.. مددت يدي وأنا مغمض العينين أبحث عنه.. لم أجده بسهولة.. فتحت عينيّ مرة أخرى وأنا أشعر بالغضب.. رددت هذه المرة ووضعت الهاتف على أذني بدون أن أرد، ولم تمر لحظات حتى اعتدلت على الفراش بعنف وانتصب جسدي بشدة وأنا أهتف بصوتٍ عال: "نعم أنا منير وليلى هي أمي.. ما الذي حدث؟!"

استمعت إلى كلامه جيدًا قبل أن أقول: "حادث!! مشفى؟! أعطني العنوان حالاً".

"حسنًا.. دقائق وسأكون هناك".

أغلقت الهاتف وأنا أمسك رأسي بيدي بغير تصديق لما سمعته.

*****

وصلت للمشفى بسرعة ودخلت من بابه منطلقًا كالقطار إلى موظفة الاستقبال وأنا أهتف بها: "هناك مصابة وصلت إليكم اليوم.. ليلي السيد عبد الفتاح".

أدخلت الموظفة البيانات إلى الحاسب وتأملتها للحظات: "٣١٥.. الطابق الثالث غرفة رقم ١٥".

اندفعت إلى المصعد وصعدت به سريعًا حتى الطابق الثالث.. خرجت من المصعد.. تلفت يمينًا ويسارًا قبل أن أعرف الغرفة التي ترقد أمي بها، لا من رقمها.. بل من الزحام أمامها.. ثلاثة أشخاص يقفون على باب الغرفة.. ركضت حتى وصلت إليهم ووقفت أمامهم للحظات قبل أن أعرّف نفسي إليهم: "أنا منير.. أمي المصابة في الحادث".

مدّ أحدهم يده لي وهو يصافحني: "أنا النقيب شعبان الذي تحدثت إليك على الهاتف". ثم أشار لزميله بيده: "وهذا الملازم أول عبد الرحمن.. نحن هنا لأخذ أقوال والدتك بمجرد أن تشعر بتحسن إن شاء الله". ثم أشار للشخص الثالث: "هذا الجندي محمود.. الجندي المسؤول عن حراسة الغرفة لحين انتهاء التحقيقات".

"ما الذي حدث؟!"

"اهدأ.. والدتك كانت تخرج من عمارة في حي المعادي.. تحديدًا عمارة الطبيب النفسي شاكر أحمد.. عندما صدمتها سيارة مسرعة يقودها شاب أرعن.. لم نتوصل إليه بعد ولكن لدينا شهود عيان يدلون

بأقوالهم، ومواصفاته ومواصفات سيارته في القسم الآن.. أعدك أن نتوصل له سريعًا لينال عقابه".

نظرت له في حنق لأنني غني عن كلماته المستهلكة التي يقولها لأنهم علموه هذا، وليس لأنه فعلاً سيؤدي عمله على أكمل وجه. قبل أن أسأله بغضب حاولت أن أخفيه: "هل أستطيع أن أراها؟"

"حسنًا.. الطبيب بالداخل.. بمجرد أن يخرج سيأتي معنا لنكتب تقريرًا عن حالتها. وتستطيع أن تسأله كل ما ترغب به".

قال جملته وأدار وجهه عني، وانشغل في الحديث مع زميله وتركني وحيدًا.. لحسن حظي أن انتظاري لم يطل كثيرًا.. بضعة دقائق مرت قبل أن يخرج الطبيب من الغرفة.. أسرعت إليه وعرّفته بنفسي.. نظر لي للحظات قبل أن يتمتم بصوت خفيض: "لا أخفيك سرًا، حالتها سيئة.. طلبت أن تراك.. ادخل إليها ولكن لا تضغط عليها كثيرًا.. لن تحتمل.. بجوار فراشها زر صغير لاستدعاء الممرضات.. أتمنى ألا تضطر لاستخدامه".

دخلت للغرفة بعد أن أشار الطبيب للجندي بأن يسمح لي بالدخول.. فتحت باب الغرفة ووقفت على الباب أتابع الطبيب وهو يبتعد معهما قبل أن يغيبوا عن ناظري.. دخلت وأغلقت الباب خلفي.

نظرت لها وهي راقدة على الفراش.. تأملت الأجهزة الطبية الموجودة بجوارها.. عشرات الخراطيم البلاستيكية التي تدخل جسدها وتخرج منه.. سحبت كرسيًا بهدوء وجلست بجوارها أتأمل وجهها الذي يختفي خلف ضمادات كثيرة.. جسدها مليء بالسحجات والكدمات.. الإرهاق يبدو جليًا على ملامحها.. جلست بجوارها وأنا أقاوم بضع دموع قليلة تريد الهروب.. مددت يدي بهدوء إلى شعرها، وقبل أن أصل إليه ترددت.. هل أمسّ شعرها؟! أخاف أن أؤلمها دون قصد مني.. توقفت يدي في الهواء للحظات، قبل أن أشعر بيدها تتحرك لتمسك يدي وتحتضنها.. سالت مني دموعي بغير قصد.. خفق قلبي بشدة وأنا أتأمل ابتسامتها الحزينة التي ترتسم على ملامحها المرهقة.. حاولت أن تفتح عينيها إلا أنها لم تستطع.. فتحت نصف عين مرهقة وتأملتني بها قبل أن تحاول الاعتدال.. ساعدتها حتى اعتدلت.. فتحت عينيها.. تغلبت على آلامها وسعلت مرة أو اثنتين قبل أن تشير إلى كوب الماء الموجود على الكومود الموضوع بجوارها.. جرعت منه جرعة صغيرة قبل أن تسعل للمرة الأخيرة وتشير لي بالاقتراب منها لكي تتحدث إلي.. اقتربت، بدأت تحكي لي بصوت مرهق خفيض عن أشياء لم أعرفها ولم أتمنَ لو أعرفها.. حكت لي ما هو أغرب من الخيال.. تعجبت كثيرًا مما تقول.. لو أننا في موقف آخر لضحكت حتى ارتويت.. ولكن في هذا الموقف لم أملك سوى الدهشة وأنا أستمع لكلماتها الغامضة الغريبة: "منير.. هل تتذكر ذلك الحلم الغريب؟ ذلك الكابوس الذي أصابك في آخر شجار

لي مع والدك.. ذلك الكابوس الذي رأيتني فيه أقتل والدك؟ حسنًا.. الحقيقة أنه لم يكن كابوسًا.. لقد قتلته بالفعل".

"ولكن!"

"اسمعني جيدًا.. لم يعد هناك مزيد من الوقت لتضييعه.. اسمعني ولا تقاطعني.. الحقيقة أنني لم أقتله فقط.. منير.. أريد أن أذهب للمنزل.. أريد أن أموت في منزلي وعلى فراشي".

"لا.. لن تموتي.. إن شاء الله عمرك طويل يا أمي، ولكنني لا أفهم".

"ستفهم كل شيء في المنزل يا منير.. اخرج الآن لتستأذن الطبيب لكي نرحل".

خرجت بخطوات مرتعدة إلى الردهة.. سألت الجندي عن مكان الطبيب والشرطيين.. مشيت إلى الغرفة التي أشار لي عليها.. طرقت الباب حتى سمعت صوتًا يدعوني للدخول.. وقفت أتأمل الثلاثة للحظات.. هذا ليس مظهر طبيب جاد في عمله وليس مظهر شرطيين يحققان في جريمة.. الثلاثة سجائرهم تحترق.. أمام كل منهم مشروبًا غازيًا في كوب كبير ممتلئ بالثلج.. لم يحاول الأوغاد حتى إخفاء ضحكاتهم عند دخولي.. مازال كل منهم يرسم ابتسامة بلهاء على وجهه، قبل أن أتحدث للطبيب بصوت واهن: "والدتي تريد الخروج.. تريد الذهاب للمنزل".

"ولكنها تحتاج لعناية طبية كاملة.. لابد من أن تظ"..

"لا تقلق، سأقوم بالعناية بها.. أعرف كيفية تركيب المحاليل والتغيير على الجروح وإعطاء الحقن، ولو اقتضى الأمر سأؤجر لها ممرضة خاصة".

نظر الطبيب للشرطي الذي أشار له بما معناه أنه لا يهتم للأمر، قبل أن يمط الطبيب شفته السفلى ويشير لي بأنه سيتولى الأمر وستخرج الليلة.

خرجت من الغرفة واتجهت لغرفة أمي مرة أخرى، قبل أن أسمع الطبيب ينادي عليّ من خلفي.. التفتُّ إليه.. ألقى عليّ محاضرة سخيفة من طراز لو لم تستطع رعايتها على الوجه الأكمل اتركها هنا حتى تتحسن.. حالتها صعبة وتحتاج رعاية خاصة.. كن صلبًا فأنت كل ما تحتاجه في هذه الفترة.. بضع كلمات يكررها على مسامع كل من يأتي إلى هنا.. حقًا في بعض الأحيان لا يصل إلى المناصب المهمة إلا من لا يستحقها.. اومأت له برأسي قبل أن أتركه وأغادر.

(٥)

في المنزل ساعدتها لتجلس في فراشها قبل أن أتناول وسادة وأضعها خلف ظهرها وأتأكد من المحاليل المعلقة وأتأكد من جرعة المسكن.. أجهزة عديدة كلفتني العديد من الأموال، ولكن الأمر حقًا لا يهمني قدر ما يهمني استكمال الكلام الذي بدأته أمي في المشفى.. كنت لا أزال أشعر بالحنق على الطبيب والشرطيين الذين لم يتحلّ أي منهم بالأخلاق المرجوة من مهنته.. جلست بجوارها وتأملتها بعينين ممتلئتين بالحزن.. رأيت يدها تزحف بجوارها تبحث عن يدي.. أمسكت يدها وتركت يدي تنهل من حنان يدها ودفء اطمئناني بها.. ابتسمت ابتسامة منهكة وهي تقول: "أعلم الآن أنك تتحرق شوقًا لكي تعلم الأمر برمته".

"أنتِ قلتِ أنك قتلتِ أبي وأنا لا أصدقك حقًا.. بل إني – وسامحيني – أعتقد أنكِ تهذين من أثر المخدر".

اتسعت ابتسامتها الحنون وهي تحاول أن تضحك، إلا أن آلامها حالت دون ذلك:

"منير.. أريد أن أقص عليك القصة بأكملها، ولكن لي عندك رجاء".

"ما هو يا أمي؟!"

"ألا تقاطعني مهما كان ما سمعته غريبًا أو منفرًا".

انقبض قلبي وتوجست خيفة وأنا أرسم آلاف السيناريوهات المحتملة، إلا أنني وفي الحقيقة لم تبلغ شدة سواد أفكاري مجرد الاقتراب من الأمر الشنيع الذي سمعتها تقصه عليّ:

"هناك مرض شديد الندرة يا منير يدعى مرض كورو.. هل سمعت عنه من قبل؟"

هززت رأسي نافيًا دون أن أتحدث، فاستكملت حديثها: "هذا المرض علميًا وطبيًا شبه منقرض، وإن كان في خضم قوته لم يظهر أو يهاجم مدينة متحضرة، بل إن ظهوره اقتصر على بضع قرى إفريقية فقيرة".

تحدثت بصوت خافت وأنا أقاطعها: "ولكننا نعيش في مدينة كبيرة متحضرة وليس إحدى قرى الأدغال.. لا أفهم الرابط!!"

بلعت ريقها في صمت وظهرت على وجهها علامات الألم وهي تقول: "يا ولدي لا تقاطعني وستفهم كل شيء.. هذا المرض من أعراضه الترنح، والصداع، وآلام في المفاصل واهتزاز للأطراف، هذا قبل أن تبدأ المرحلة التي يطلقون عليها السريرية؛ في المتوسط ١٢ شهرًا".

نظرت لي لتقرأ رد فعلي قبل أن تستكمل: "الرجفة موجودة تقريبًا في جميع المرضى الذين يعانون من هذا المرض وانعدام التناسق الحركي.. هل تفهم من كلامي شيئًا؟"

هززت رأسي في إشارة بالنفي.. ابتسمت بإجهاد وواصلت حديثها: "ببساطة وبدون الدخول في تفاصيل.. هذا يمتاز بعدم الاتساق الحركي.. أتعلم تلك الحركات المفاجئة التي تصيبك من حين لآخر؟ هو سببها.. هذا المرض إذا زادت نسبته عن ثلاثين بالمائة فإنه يسبب الوفاة.. يسميه الناس في مناطق كثيرة "مرض الضحك" لأن المصاب به يتحرك حركات فجائية قد تسبب الضحك لمن حوله أو له شخصيًا.. آخر ظهور لهذا المرض كان في بابوا غينيا الجديدة في منتصف القرن العشرين تقريبًا".

"أمي.. بهدوء.. كيف علمتِ كل هذا الكلام العلمي؟! وما هي علاقتي بهذا الأمر؟!"

نظرت في عيني بإجهاد وفي عينيها نظرة لوم لأنني قاطعتها للمرة الثانية: "في البداية عندما رأيت حركاتك المفاجئة ذهبت لاستشارة طبيب مدّني بكل تلك المعلومات بعد عدة فحوصات.. لم آخذك له لأنك الحالة الوحيدة المعلومة في منطقة الشرق الأوسط، ولم أرد أن يتحول ولدي لفأر تجارب".

"وما علاقة هذا الأمر بوفاة والدي؟! وهل من علاج لهذا المرض العجيب؟"

نظرت لي بلوم ممتزج بغضب رقيق.. غضب أم من وليدها قبل أن تتحدث بصوتها المجهد: "الصبر يا بني.. سأخبرك بكل شيء".

مدت يدها إلى كوب الماء لترشف منه رشفة أخرى قبل أن تستكمل: "كما أخبرتك في المشفى.. الكابوس الذي هاجمك بضراوة لفترة من عمرك قرابة وصولك لسن العاشرة لم يكن حقًا كابوسًا.. والدك يا بني كان كالبحر.. أحيانًا هو أحن وأرق مخلوقات الله وأحيانًا أخرى تهاجمه عواصف الغضب وأعاصير الجنون، ليتحول لمخلوق لا يطاق.. في البداية تحملت تقلباته.. كان الغضب يسيطر عليه لفترة قليلة جدًا نسبيًا، قبل أن يعود ليتحول لملاك رقيق وتبتسم لي الحياة بين ذراعيه، ولكن بمرور الوقت بدأ الغضب يحتل مساحات أكبر.. الرقة والحنان والعديد من الأشياء التي تتيح حياة زوجية سعيدة بدأت تذبل.. شمس الغضب وصحراء العنف القاحلة قضوا على كل آمال الحياة المستقرة.. بدأ يتجه للعنف اللفظي بالتدريج، وعندما وجدني ألتزم الصمت ازداد في عنفه.. نعم التزمت الصمت.. كيف لي أن أهين رجلي الذي تحديت أسرتي من أجله؟ كيف أهين حبيبي الذي لو اقتضى الأمر لتحديت العالم بأسره من أجله؟ أهين سندي في تلك الحياة.. كيف يعقل؟! تحملت.. تحملت الكثير من الأفعال والتصرفات.. تحملت الحياة بلا حب ولا حنان.. تحملت من أجلك ومن أجل قلبي.. قلبي الذي كان ينبض باسم فريد.. قلبي الذي طالما عاش من أجله.. اتجه بعدها للعنف الجسدي.. هنا بدأت الأمور تتغير.. أيقنت هاهنا أن فريد لن ولم يحبني قط.. مرت عليّ لحظات شك هائلة شككت فيها في سبب زواج فريد مني! هل تزوجني من أجل وعده الذي وعدني إياه؟ لا يعقل!! الرجل الذي يضرب زوجته ليس الرجل الذي لا يُحنث وعوده.. هل تزوجني لأنني ضعيفة؟ ربما.. هذا هو

السبب الأقوى والأبرز.. عاملني فريد على فترات ككيس الرمال الذي يستخدمه الملاكمين.. كلما شعر بالغضب ضربني.. تجاهلت الأمر.. تعمد إهانتي لفظيًا وجسديًا.. امتنع عني.. صفعني.. سبّ والدي الذي تُوفي بسببي.. سبّ أخي الذي تحمل منا الكثير.. لم أعد أحتمل.. لم أحتمل أكثر من هذا.. كانت المرة التي شاهدتها أنت هي المرة الأخيرة.. حطمت رأسه بالتمثال النحاسي.. تيقنت أنه مات من الضربة الثانية أو الثالثة".

اتسعت عيناي في دهشة وعدم تصديق، قبل أن تتجمع ذرات العرق البارد على جبيني وأنا أستمع بغير تصديق للجريمة التي تقصها علي.. تابعت كلماتها وهي تخشى تلاقي أعيننا: "لماذا استمررت بضربه إذن؟! ابتسامة ساخرة حفرت على ملامحه حتى بعد أن فارق الحياة لم تنجح الضربات في محوها.. حطمت رأسه تمامًا.. المشهد كان مقززًا.. إلا أن الغضب أعماني.. كنت أشعر أنني مجرد مشاهدة.. جسدي يتحرك رغمًا عني.. أغلقت باب غرفتك عليك.. سحبت الجثة إلى المطبخ.. نظفتها بقطعة من الإسفنج المبتل بالماء واحتضنته.. احتضنت رفيق الدرب.. بكيت كما لم أبكِ من قبل.. عندما تنبهت لأمر شديد الخطورة.. ماذا سأفعل؟ كيف سأداري فعلتي الشنيعة؟! تملكني الفزع! لم أدرِ ماذا أفعل.. من بين دموعي لمحت السكين الضخم.. سكين تقطيع اللحم.. كانت الخطوة الأولى والأكثر منطقية هي قطع الرأس المحطم.. عندها زادت حماستي.. لا أعرف أهو الكره أم الدماء، لكنني استمررت في التقطيع بجنون مطبق.. هنا جاءتني فكرة أخرى مجنونة.. استمررت في التقطيع حتى وصلت للحد الذي يسمح لي

بتطبيق فكرتي.. فكرتي التي لم تخطر على عقل كائن حي.. الجريمة المثالية.. لا تُسئ الظن بي وتعتقد أنني فخورة بما فعلت.. لقد كدت أقتل نفسي آلاف المرات.. هاجمتني الكوابيس.. أعتى كوابيس ممكن أن تتخيلها.. لم تكن لتتحملها لو هاجمتك.. ندمت أشد الندم بعدها، ولكن وقتها كان الجنون هو المحرك الأساسي للعبة.. بمجرد أن انتهيت من تقطيع الجثة لأشلاء حتى بدأت في تنفيذ خطتي.. التي ساعدتني أنت في تنفيذها".

كنت أجلس بعينين متسعتين عن آخرهما وفم مفتوح على مصراعيه من فرط المفاجأة.. أمي تعترف بقتل أبي بسهولة.. لكن لحظة.. تمالكت أعصابي وحاولت التحدث إلا أن صوتي لم يخرج في المرة الأولى.. حاولت ثانية.. خرج صوتي مرتعدًا متحشرجًا وأنا أسألها برعب بالغ: "أنا!!! أنا ساعدتك على تنفيذها!! كيف هذا؟"

صمتت للحظات ثم قالت وهي تدير وجهها لجانب الغرفة الآخر: "وكيف تعتقد أنني سأتخلص من كل هذا اللحم؟"

لم أفهم ما الذي تعنيه بتلك الجملة.. كدت أسألها عن معناها إلا أنني توقفت للحظات، ثم سألتها وأنا غير مصدق.. سألتها بصدمة بالغة: "هل تعنين.."

هزت رأسها بدون أن ترد في إشارة معناها: "أجل".. عندها شعرت بالغرفة تدور بعنف قبل أن تُظلم في وجهي تمامًا، لألقي بجسدي على طرف الفراش وأنشج بشدة وأنا مغمض العينين.

(٦)

صوت ندائها يصطدم بروحي ليحضرني إلى عالمنا.. تخرجني من دوامة اللاوعي التي سقطت فيها.. أحاول أن أفتح عينيّ إلا أنني أشعر بمرارة بلا حدود.. جاهدت نفسي وفتحت عينيّ ببطء.. صداع رهيب يكتنف رأسي.. في النهاية ظللت أتأمل أمي التي تجلس على فراشها وبيدها كوب الماء.. لم أستطع أن أنظر في عينيها وأنا أعتدل لأقف بجوار فراشها.. الألم الذي يكتنف رأسي ويدق جنباتها مرعب.. غصة مرة مؤلمة في حلقي.. لم أستعد تركيزي بأكمله بعد.. بضع دوائر سوداء قاتمة تتلاعب أمام عينيّ ودوار رهيب يغتصب رأسي.. استعدت تفاصيل الجريمة وهي تحدث كأنما أراها رؤى العين.. أري التمثال وهو ينهال على رأسه.. أرى رأسه المحطمة وجمجمته المكسورة وابتسامة التحدي الساخرة.. أرى الجنون والدموع في عينيها.. أرى الساطور وسكين اللحم وهما يقتطعان من لحم جثته.. الدوائر السوداء تتسع أمام عينيّ.. لا، سأحاول التماسك.. لن أفقد الوعي أمامها.. لم أعد أشعر بالأمان معها.. وكيف أشعر بالأمان مع سفاحة وآكلة لحوم بشر.. لحظة.. أنا أيضًا.. لقد حولتني لآكل لحوم بشر.. ولكن لماذا.. لماذا أشركتني في تلك الجريمة؟! لماااااذا؟!

خرج مني السؤال بصوت جهوري غاضب فارتجف جسدها ودمعت عيناها وارتبكت.. صمتت للحظات وهي تحاول لملمة أفكارها بهدوء.. سارعتها بالسؤال مرة أخرى.. لا أريد إجابات منسقة منمقة.. أريد الحقيقة والحقيقة لا تأتي إلا تلقائية دون تفكير: "لماذا؟!"

"لقد قصصت لك القصة بأكملها".

"لقد عينت نفسك القاضي والحكم ونصبتِ له محكمة عرفية وأصدرتِ حكمك بالإعدام وبطريقة بشعة.. الأمر صعب وغريب ولكنني أستطيع تقبله.. أستطيع أن أتعايش معه برغم بشاعته وعنفه غير المبرر.. وأستطيع فهم أيضًا تقطيعك للجثة.. سيُسهّل عليك التقطيع الأمر كثيرًا في التخلص من الجثة.. كل تلك الأفكار واردة وتحدث.. الأمر الذي لا أستطيع أن أفهمه أو أتقبله هو أكلك للحمه.. أنتِ إنسانة مريضة.. أنتِ لستِ..."

لم أستطع تكملة جملتي.. انتحيت ركن الغرفة وتقيأت.. تقيأت كما لم أتقيأ من قبل.. تمالكت نفسي وإن كنت أشعر بالغثيان.. الدوار يهاجمني بشدة.. الصداع يستمر في طرق جنبات رأسي.. جسدي بأكمله تجتاحه الآلام.. ناهيك عن الآلام النفسية التي أشعر بها.. حاولت بشدة أن أتمّ جملتي.. أشعر بالثورة.. بالغضب.. بالرعب.

"لماذا أطعمتني إياه؟"

بكت بشدة.. إذن أنتِ الآن تلعبين دور الضحية.. الضحية التي قتلت مرة وستقتل مئات المرات إذا أتيحت لها الفرصة.. انتُزع من قلبي كل شعور تجاهها.. مُحي من عقلي كل المواقف والذكريات التي تخبرني أنها أمي.. أنا الآن يتيم.. يتيم يجلس في غرفة مغلقة مع سفاحة.. شيطانة.. مخبولة.. قاتلة.. سمّها ما شئت، ولكن من فضلك لا تخبرني أنها أمي.. تأملت بكاءها وارتجاف جسدها الضعيف.. لا أدري السبب ولكن

بكاءها هذه المرة لم يُثر أي عواطف بداخلي.. بالعكس تمامًا.. مع كل دمعة تسقط من عينها.. مع كل ارتجافة تهاجمها.. مع كل أنّة ألم تطلقها كان غضبي يزداد.. كان يسيطر أكثر فأكثر.. الصداع الآن يزداد بشدة.. لم أعد أتحمله.. وقفت أمام الحائط أوليه وجهي وأتأمله وأنا أصرخ بها من شدة الألم: "إذن أنتِ سبب كل هذه الآلام والصداع والحركات المفاجئة.. لتنفذي انتقامك، قتلته وقتلتني معه.. قتلتني عندما أطعمتني إياه".

رأيت وجه أبي يتجسد على الحائط.. الهلاوس تهاجمني.. الدوار والغثيان يساعدانها والصداع والغضب يتوليان زمام الأمور.. ابتسامته الساخرة تتسع على فمه.. يفتح فمه ويحاول أن يتحدث إليّ.. يبدأ رأسه في التحطم.. تتطاير قطع صغيرة من اللحم وقطرات الدماء في كل مكان.. يختفي أبي من أمامي.. حتى في هلاوسي حرمان.. الصداع يزداد بشدة.. لم أعد أحتمل.. لم أعد.. صدمت رأسي في الحائط بعنف.. حقًا لا أدري السبب.. ربما لأنني أريد أن أتخلص من الألم اللعين، وربما من شدة غضبي.. شعرت بالدم الدافئ يسيل على وجهي.. الدوار يزداد.. أتجه إليها بخطوات متثاقلة مترنحة.. ينبعث من بين شفتيّ صوت أشبه بزمجرة الحيوان المحتضر.. الدم الذي يغطي وجهي والحشرجة التي أصدرها جعلاني أشبه بالشيطان.. توقفت عن البكاء واتسعت عيناها برعب بالغ.. حاولت التحرك إلا أن آلامها منعتها.. شعرت بالخطر.. تلفتت حولها تبحث عن شيء تحمي نفسها به.. لم تجد إلا كوب الماء.. ألقته نحوي بقوة إلا أنني تلقفته بيد واحدة ودون أن أنظر إليه.. حطمته بيدي وألقيته أرضًا دون أن أكترث للشظايا التي

جرحت يدي بشدة.. فقدت المزيد من الدماء.. أصبحت خطواتي أكثر ثقلاً.. رائحة الدماء تستفزني.. اقتربت منها أكثر.. تلاقت أعيننا بشدة.. رأيت في عينيها نظرات الاستعطاف: "الآن تستدرين عطفي!! وأنا؟! ألم تشعري نحوي بأي نوع من أنواع الشفقة؟ ألم يصعب عليكِ الطفل الصغير الذي تطعمينه من لحم أبيه؟! عفوًا لقد انتهت الرحمة وحلّ محلها الغضب والرعب.. هل لكِ في قليل منهما؟"

اختطفت الوسادة من تحت رأسها ووضعتها على وجهها بعنف.. حاولت المقاومة إلا أنها كانت أضعف من أن تقاوم.. أمسكت وجهي بيدها.. خدشتني، ولكن هل يهمني حقًّا أمر الخدش بقدر ما يهمني أن أنهي حياتها؟ استمرار حياتها ربما يعني انتهاء حياتي.. قاومت.. صفعتني.. خدشتني مرارًا وتكرارًا.. حاولت دفعي.. صارعت الهواء بيديها.. استمرت لوهلة إلا أن قواها أخذت تخور بالتدريج.. سقط ذراعاها بجوارها.. لم أرفع الوسادة.. استمررت في الضغط.. كل بضع لحظات ينتفض جسدها.. سكن جسدها تمامًا.. رفعتُ الوسادة وتأملتُ عينيها الخاليتين من الحياة.. لم أغلقهما.. نظرت لهما وبكل تحدٍ صحت بهما: "الجزاء سيكون من جنس العمل".

الدوار يزداد بشدة والصداع الآن أصبح هو المسيطر.. الدوائر السوداء تتسع أكثر فأكثر.. لم أستطع التحمل.. سقطت أرضًا على وجهي.. أخذت الدنيا تسّود ببطء أمام عينيّ وأنا لا أحاول حتى المقاومة.. لكم كنت أحتاج للراحة حقًّا.. أحتاجها بشدة.

(٧)

استعدت وعي ببطء وهدوء وإن لم أستعد بعد إحساسي بفداحة الأمر الذي قمت به.. اعتدلت على الأرض وحاولت أن أقاوم دواري وأن أرفع نفسي بيدي لكي أقف.. بمجرد أن أسندت يدي على الأرض حتى أصابني ألم بالغ.. تركت جسدي يعود للأرض في بطء وأنا أقاوم الألم وأحاول تحمله.. نظرت ليدي التي مزقها الزجاج.. حتمًا ستحتاج لخياطة، وربما تحتاج لعملية جراحية لو كانت هناك بقايا زجاج بداخلها.. تحاملت على يدي الأخرى واعتدلت حتى توقفت.. حاولت أن أتحرك إلا أنني شعرت بالدوار يقتحم أعماق رأسي.. ترنحت للحظات قبل أن أعتدل وأحاول الخروج من الغرفة.. تذكرت شيئًا هامًا.. عدت إلى الغرفة والتقطته وأنا أبتسم ابتسامة ساخرة، وأطمئن على خطتي التي وضعتها في لحظات ما قبل القتل وسأبدأ في تنفيذها.

*****

جلست أمام الطبيب المنهمك في تضميد جراح رأسي ويدي في صالة المنزل خارج الغرفة، وأمامي الضابط الذي قابلته من قبل ينظر لي نظرات حائرة بلا معنى.. مازال ينظر لي بنظرات متشككة.. يحاول أن يتحدث أكثر من مرة إلا أنه يتراجع في اللحظات الأخيرة.. انتهى الطبيب من تضميد جراحي.. نظرت للضابط الذي مازال يتأملني بصمت..

دمعة دافئة قفزت من عيني وأسرعت إلى وجنتي.. يبدو أنها حركت مشاعره: "فلتهدأ قليلاً يا منير.. رحمها الله".

"رحمها الله.. أنا لا أعلم السبب الذي قُتلت من أجله.. ولا أعلم من الذي قتلها".

"اهدأ واحكِ لي ما حدث بهدوء".

"لقد ذهبنا إلى المنزل ومعي أحد الفنيين في المشفى.. تأكد الفني من الأجهزة وأنها موصلة بطريقة صحيحة وانصرف.. جلسنا نتحدث.. شعرت بالجوع.. خرجت لأشتري لها بعض الطعام من الأسفل وتأخرت قليلاً.. عندما عدت وجدت الغرفة بهذا المنظر، ووجدتها.. وجدتها مقتولة!"

دمعة أخرى تفر من بين عينيّ ولكنني بداخلي لا أشعر بأي شيء.. كأنما ماتت مشاعري مع موتها.. مدّ لي الضابط يده بمنديل ورقي.. تناولته من يده ومسحت الدموع التي سالت على وجهي.. نظر لي مرة أخرى وهو يسألني: "هل أنت مستعد للدخول معي للغرفة لكي نتابع نتائج التحقيقات التي توصل لها رجال البحث الجنائي؟"

لم أرد ولكني هززت رأسي في إشارة بالموافقة.

دخلنا إلى الغرفة واتجه رئيس فريق البحث إلى الضابط لكي يبلغه بآخر المستجدات التي توصلوا إليها.

"في البداية دخلنا إلى الغرفة.. وجدنا في الركن الشمالي للغرفة قيئًا حديثًا.. أخذنا منه عينة لكي يحللها المختبر ونتوصل إلى صاحبها.. وجدنا آثار دماء على الحائط المقابل للفراش.. كوبًا محطمًا ملوثًا بالدماء على أرضية الغرفة.. للأسف لم نتوصل لمكان سلاح الجريمة".

التفت لي وسألني: "منير، هل هناك أي شيء مفقود.. من فضلك ركّز لأن أي معلومة ولو قليلة جدًا ستفيدنا في التحقيق".

"نعم.. أولاً: القيء الموجود هناك والدماء على الحائط والدماء حول كوب الماء أيضًا كلها تخصني.. ونعم هناك وسادة مفقودة.. تلك الوسادة التي كانت خلف رأسها".

نظر لي الضابط بشك للحظات قليلة قبل أن يسألني: "وكيف وصلت دماؤك للحائط والكوب؟"

"عندما دخلت للغرفة اصطدمت قدمي بالكوب الذي كان يقبع على الأرض.. تناولته واعتقدت أنه سقط منها لأنها كانت تبدو نائمة.. اتجهت إليها عندما بدأت ألاحظ زرقة غير طبيعية تسيطر على وجهها وشفتيها.. جسدها هامد تمامًا ولا تتنفس.. تلقائيًا وبدون وعي مني انقبضت يدي على الكوب الذي تحطم مسببًا جروح يدي ودمائي التي سالت مني.. أحسست بعضلات معدتي تنقبض أيضًا فانتحيت ركنًا من أركان الغرفة وأخرجت كل ما كان بمعدتي، قبل أن أواجه الفراش وأتأملها للحظات تأكدت فيها أنها فارقت الحياة، فلم أعد أرى لحياتي

قيمة في دنيا هي ليست فيها، فالتفتُّ للحائط وصدمت رأسي به في نوبة غضب، إلا أنني فقدت وعي فقط، وعندما أفقت اتصلت بك لتأتي لترى بنفسك".

"هل حركت أي شيء من مكانه في تلك الفترة، سواء التي سبقت فقدانك للوعي أو الفترة التي سبقت حضوري؟"

"لا، لم أحرك شيئًا سوى الكوب الذي التقطته من على الأرض وتحطم بين أناملي".

"هل تشك أو تريد أن تتهم أي شخص بقتلها في المحضر الرسمي؟"

"لا أتهم أي شخص، ولكنني أشك في الشخص الذي صدمها بالسيارة".

"الشخص الذي صدمها!! لا.. لا أعتقد يا منير.. فرضية صعبة للغاية".

"لماذا؟!"

"أولاً.. كيف عرف عنوانها، وكيف عرف أنها بمفردها في تلك اللحظة؟"

"العنوان في المشفى، وبسهولة يستطيع أن يحصل عليه، والأكيد أنه كان يراقبنا عندما تركتها بمفردها".

"حسنًا.. كلامك قد يكون مقنعًا بعض الشيء.. ولكن الأهم: لماذا قتلها؟"

"لا أعرف، ولكني لو افترضت أنني سأفكر بطريقته.. ربما تكون هي تمكنت من الحصول على رقم السيارة ويكون هو هاربًا من العدالة، أو من الممكن أن يكون خارجًا عن القانون أو شقيًا، فوجد أن هذا هو الحل الأمثل للهروب من جريمته".

"كلام مقنع مرة أخرى ولكنه يفتقر للحجة.. عمومًا أعدك أننا سنبذل قصارى جهدنا لكي نصل له، ومن ثم سنتأكد إذا كان هو أم شخص آخر.. معك رقمي إذا رأيت أو سمعت أي شيء يخص القضية.. كلا القضيتين.. من فضلك اتصل بي".

"حسنًا".

"هناك شيء آخر.. هذه الشقة تعتبر مسرحًا للجريمة فلا يجب أن تكون بها.. أنا آسف، أعرف أن طلبي سخيف، ولكن..." قاطعته بهدوء: "حسنًا، فهمت.. لا تقلق، سأبحث عن مكان آخر، وبمجرد أن أستقر سأعلمك بمكاني لكي نستطيع التواصل".

انصرفوا جميعًا ولم يرَ أي منهم الشيطان الجاثم بداخلي وهو يبتسم ابتسامة شريرة وهو فرح بنجاح خطته العبقرية.. انصرف الجميع وبدأت أجهز نفسي للجنازة والدفن وتلقي العزاء والاستماع لآلاف

الدعوات، ثم الانصراف من شقتي والاتجاه للعمارة القديمة التي كان يملكها أبي والآن هي مهجورة، والتجهيزات التي قمت بها ومن ثم سرقتي لجثتها من المقبرة.. كان بودي أن أقص عليك التفاصيل كاملة، إلا أن شيئًا عجيب حدث الآن.. الجثة الراقدة على المنضدة وأنا أجلس أمامها أقص عليك ملخصًا سريعًا للأحداث التي لم تحضرها معنا.. اعتدلت وابتسامة قاسية تُحفر على وجهها وجلست على المنضدة بهدوء وهي لا تزال تبتسم مغمضة العينين.. نَظَرَت لجسدها ببطء غريب وهي لا تزال مغمضة العينين.. الابتسامة القاسية الساخرة وحركتها البطيئة تخيفني.. شعرت برعدة خفيفة تمر في جسدي.. حاولت التماسك وأنا أجلس أمامها.. مدت يدها ببطء لشعرها وتناولت خصلة منه.. العجيب أن تلك الخصلة خرجت في يدها كما لو أنها لم تكن مرتبطة بجسدها على الإطلاق.. رفعت رأسها ببطء غريب ونظرت تجاهي.. فتحت عينيها فجأة لأفاجأ بأن عينيها سوداوين كالحتي السواد.. كل عينيها سوداء.. تأملتني بسواد عينيها قبل أن تصرخ صرخة شيطان يحترق في الجحيم ويهتز المنزل بأكمله بقوة.

(٨)

اهتزّ المنزل إثر صرختها بعنف.. رجفة قوية سرت في جسدي بأكمله.. أحضرتني إلى العالم مرة أخرى.. تأملت المكان من حولي.. كل شيء كما كان.. كل شيء في مكانه كما تركته.. حتى الجثة ترقد الآن على المنضدة بلا حراك.. لا، لم أنم بالطبع، وإن كنت قد انزلقت إلى تلك المنطقة المبهمة التي تقع بين الوعي واللاوعي.. ذلك المكان الذي يقبع بلا حراك بين النوم واليقظة.. يقبع بلا حراك ناصبًا لك فخًا ما إن تنزلق فيه حتى تتحقق أسوأ كوابيسك وأبشع مخاوفك أمامك للحظات، قبل أن يُحضرك الرعب إلى عالم اليقظة مرة أخرى أو يجرك جرًا إلى عالم النوم والحلم.. ذلك العالم الذي لا نعرف عنه شيئًا.. العالم المظلم الذي تتحقق فيه أبشع الكوابيس أو أسعد الأحلام.. نظرت للجثة المسجاة أمامي على المنضدة.. شعرت بالعديد من المشاعر تضطرب بداخلي.. لا أستطيع تمييز شعوري الآن.. هل هو فرح لأنني سأحقق انتقامي؟ هل هو حزن لأنني قتلت أمي؟ هل هي مشاعر خوف بسبب الهواجس التي أصابتني منذ قليل؟ هل هو قلق من اكتشاف الشرطة لجريمتي؟ لا أدري، وبصراحة أكثر لم يكن هذا الأمر يهمني كثيرًا.. جُل ما يهمني الآن هو الشعور بلذة الانتقام.. اتجهت بخطى متثاقلة نحو المطبخ لأحضر السكين الضخم.. ذات السكين الذي استخدمته هي من قبل في تقطيع أبي.. توجهت لأمي وأمسكت يدها.. برغم وفاتها ومفارقتها للحياة وبرغم برودة جسدها إلا أنها ستظل نبعًا لا يجف من

الحنان.. قفز قلبي من مكانه بمجرد إمساكي ليدها.. غصة مريرة هاجمت حلقي.. أخذ جسدي يرتجف بشدة وبدأت الدموع تسيل من عيني بغزارة.. مسحت دموعي بيدي وتغلبت على غصتي ورجفتي ومددت السكين إلى مفصل التقاء الكف بباقي اليد.. عالجتها بالسكين للحظات حتى انفصلت.. تأملت الكف المقطوع في يدي برهبة.. فقشعريرة باردة سرت في عمودي الفقري بأكمله.. جسدي كان يرتجف بشدة.. قربت الكف من فمي ولكني لم أستطع أن أضعه فيه.. الرهبة تمنعني.. دموعي تسيل بشدة.. اتجهت للمطبخ والكف في يدي.. أخرجت قدرًا واسعًا نوعًا ما.. ملأت نصفه بالماء وأشعلت الموقد الجديد الذي اشتريته مؤخرًا ووضعت القدر عليه وألقيت الكف بداخله.. خرجت إلى الصالة مرة أخرى وأخذت أعالج الكف الثاني حتى فصلته عن باقي الجسد.. دموعي تنهال بغزارة.. بدأت أقطع شرائح ناعمة من لحم الفخذ إلا أنني قبل أن أنتهي هاجمتني إحدي تلك الحركات الفجائية. فجعلت السكين يشرد عن مكانه.. انتابني غضب هائل عندما تذكرت أنها أصابتني بهذا المرض اللعين.. أخذت قطع اللحم واتجهت للقدر الذي تغلي المياه بداخله.. ألقيت بها قطع اللحم التي كانت بيدي وطفقت أحرك الماء واللحم بملعقة معدنية.. دقائق وأخرجت شريحة رفيعة من لحم الفخذ.. تأملتها بتردد إلا أنني تذكرت تبعات مرضي فاشتد غضبي.. اختلجت داخلي المشاعر بشدة إلا أن زفرة هائلة اندلعت من بين شقوق روحي حسمت الأمر بأكمله.. قضمت قطعة من اللحم وأخذت ألوكها بين أسناني.. طعم اللحم المرّ صدمني..

تذكرت اللحم الذي طفقت أتناوله لمدة تزيد عن الشهرين دون أن أعرف حقيقته.. أعماني الغضب فأخذت ألوك اللحم بعنف بين أسناني.. لم أنتبه لأنه لم يطهَ جيدًا.. لم أنتبه لدرجة حرارته المرتفعة.. لم أنتبه لشيء مطلقًا.. أنهيت اللحم الموضوع في القدر، لم يبقَ إلا الكفين.. شعرت بالدوار.. جلست أرضًا وأسندت ظهري إلى الحائط.. الصداع يهاجمني بشدة.. المطارق الهائلة تنهال على رأسي.. الألم يكاد يفتك بي.. لا أحتمل.. أمسكت رأسي بيدي وأنا أتذكر أن الصداع من الأعراض الجانبية لمرضي.. هذه المرة أعتقد أن الصداع سببه نفسي وليس بسبب المرض.. لم أتحمل الألم.. هذه المرة أقوى من أي مرة سابقة.. حاولت أن أقف.. وقفت واستندت للحائط بيدي.. الدوار قوي جدًا هو أيضًا.. أشعر بالعرق البارد على جبيني.. على جسدي بأكمله.. لم أتحمل.. انهرت وسقطت على ركبتي وأنا أمسك رأسي بين يديّ وأضغط عليها بشدة.. اعتدلت مرة أخرى واستندت للحائط مرة أخرى إلا أنني هذه المرة أسندت رأسي للحائط البارد.. لا أدري ما الذي حدث حقًا إلا أنني شعرت أن الألم اللعين ينساب للحائط.. ظللت على هذا الوضع لفترة ليست بطويلة حتى شعرت بالألم يهدأ قليلاً.. دخلت إلى الحمام وفتحت الصنبور المتهالك.. دقائق مرت قبل أن ينسال منه شريط من الماء البارد.. شريط رفيع للغاية إلا أنه يكفي.. أنزلت رأسي تحته وتركت الماء البارد يتسلل بين ثنيات شعري ليمس رأسي المجهد.. تركته يغسل خطايا ارتكبتها وخطايا سأرتكبها.. شعرت به يمس روحي المنهكة ببرودته.. ابتسمت لأنني شعرت بذلك.. كنت أعتقد أن جزءًا

كبيرًا من روحي قد مات، إلا أن شعوري الآن ينبئني بأن الأمل لا يزال موجودًا.. أغلقت الصنبور ولم أجفف رأسي.. تركت قطرات الماء البارد تتساقط على وجهي وظهري وأكتافي.. اتجهت للمطبخ.. أخرجت مقلاة كبيرة وملأتها بالزيت ووضعتها على الموقد.. تركت الزيت ليغلي وأخذت أقطع اللحم من حول الكف وأتبّله كما علمتني هي منذ فترة.. ألقيت قطع اللحم في الزيت المغلي وانتظرتها.. رائحة الشواء الشهية دغدغت جوعي رغم علمي بماهية اللحم.. أخرجت اللحم ووضعته على طبق صغير وخرجت للصالة مرة أخرى.. جذبت مقعدًا وجلست أمامها.. تأملتها قبل أن أمد يدي إليها وأمشي بظهر يدي على خدها برقة.. لم أصل بعد لآخر وجهها إلا أنني شعرت بغضب مجهول يهاجمني.. مددت يدي بقسوة وضغطت على صدغها وأنا أدير الرأس بقسوة ليواجهني.. تأملت الرأس وأنا أتناول اللحم.. عيناي تتأمل عينيها التي فقدت بريق الحياة بتحدٍ سافر.. تمنيت وقتها لو أنها حية لكي أسألها هل فعلتِ المثل مع والدي؟ هل تلذذتِ بأكله كما أتلذذ الآن بتحقيق انتقامي؟ أنهيت طعامي وتناولت السكين الضخم وبدأت في تقطيع باقي الجثة لقطع صغيرة من اللحم.. أخذ مني هذا الأمر بعض الوقت.. إلا أنني عندما انتهيت كان عندي مخزون كافٍ من اللحم سيكفيني لفترة من الزمن.. تأملت العظام التي اقتطعت اللحم من حولها.. وضعتها في حقيبة سفر ضخمة كانت موجودة عندي.. بدأت أضع اللحم في الثلاجة.. خفضت درجة تبريد الثلاجة لكي تُحافظ على اللحم لأطول وقت ممكن.. خرجت إلى الصالة وتأملت المنضدة التي حوّلتها لمذبح

نحرت عليه آخر أحلامي وآمالي في أن أكون طبيعيًا مرة أخرى.. تأملت الرأس الذي تركته عمدًا دون أي خدش أو جرح.. أمسكته بيدي وتناولت السكين الضخم وغرزته حتى مقبضه في نقطة التقاء العنق بباقي الجسد.. تأملت المزهرية التي أنحيتها جانبًا وأخرجت منها الزهور التي ذبلت بداخلها، ووضعت مقبض السكين بحيث تتأملني الرأس وأراها واضحة جلية.. وضعت المزهرية على المنضدة وتأملت الرأس بابتسامة سخرية.. وضعتها نصب عينيّ لكي تذكرني بسبب انتقامي منها.. لكي لا أضعف وأتراجع عن تنفيذ انتقامي.. تخيلت جسدها وهو يخرج من الثلاجة ويلتحم ويسير نحو الرأس ويمسكها ويحاول أن يضعها مكانها، إلا أن مقبض السكين يمنعه وأكفه مقطوعة فلا يستطيع نزعها، واتسعت ابتسامتي بشدة.. حان الآن وقت النوم لأن جسدي لن يحتمل أكثر من هذا.. كل ذرة في جسدي تعزف سيمفونية من الألم فريدة من نوعها.. اتجهت للفراش وأنا أشم رائحة شواء وجبتي التالية وأبتسم.. أغلقت عينيّ وأنا أرى جزءًا من نار انتقامي تنطفئ وتخبو.

(٩)

مر شهران أو أقل على تلك الواقعة.. لن أخفيك سرًا، لقد التهمتها بأكملها.. في كل يوم يمر شهوتي تزيد.. اللحم العادي لم يعد يرضيني.. اللحم البشري فقط ما يسد جوعي ويكبت شهوتي.. الآن أنا في مشكلة عويصة.. منذ ثلاثة أيام أكبت جوعي ولكني لم أعد أقوى على الاحتمال.. أريد لحمًا بشريًا.. دافع نفسي غريب يلح عليّ.. لقد تغيرت.. لم أعد إنسانًا سويًا.. تحولت لوحش آكل لحوم بشر.. لم يعد تهمني آدميتي.. ما يهمني الآن هو أن أسد جوعي.. هناك فكرة تدور في رأسي منذ يوم أمس.. أستطيع أن أذهب للمقابر لأشتري جثة.. ولكن أخاف أن يكون اللّحاد مراقبًا أو أن يطلب مني بطاقة تدل على أنني أنتمي لكلية الطب.. أخاف ألا أتحكم في نفسي أمامه.. أخاف أن تكون المقابر مراقبة منذ يوم السرقة.. أخاف أن أعود لمسرح جريمتي الأولى.. لم يعد أمامي إلا حل واحد فقط.. صعب التنفيذ لدرجة تكاد تكون مستحيلة.. لم يكن عقلي هاهنا هو الذي يمتلك زمام الأمور.. كانت الطبيعة الوحشية هي التي بدأت تُسيطر على الموقف، وكلما واجهتها أطلقت عليّ الجوع الشرس لينهش آدميتي حتى أُرضيه.. نزلت إلى متجر يبيع مستلزمات الأطباء.. اشتريت معطفًا أبيض وكمامة سميكة.. دخلت إلى المشفى في مواعيد الزيارات كأي زائر عادي.. بمجرد أن هدأ الجو قليلاً انتحيت جانبًا بإحدي دورات المياه وارتديت المعطف والكمامة.. خرجت أنتوي الذهاب لجهة محددة، كنت قد زرت المشفى

من قبل وأعرف مكانها جيدًا.. وقفت أمام الغرفة المقصودة وتأملتها من خلف الزجاج.. كانت تبدو خالية.. تلفّت حولي في هدوء كي لا ألفت الأنظار ودفعت الباب ودخلت.. أغلقت الباب خلفي، وعندما استدرت فوجئت بممرضة صغيرة في السن تقف خلفي تنظر لي بأعين متسائلة.. شتتتني الصدمة للحظات فتلعثمت.. هذا أمر لم يكن مخططًا له إلا أن فكرة جاءتني في تلك اللحظات القليلة التي واجهتها بها.. نظرت لبطاقة التعريف التي تحمل اسم المشفى واسمها، قبل أن أسألها: "أأنتِ الممرضة وفاء؟"

"نعم أنا.. من أنت؟"

"أنا أمجد الصاوي.. طبيب امتياز.. جديد معكم هنا في المشفى".

"هذا غريب، أنا لم أركِ من قبل!!"

"ربما لأنني أتسلم نوبتجيات المساء فلا نتقابل".

"لقد كنت هنا في نوبتجية الأمس ليلاً ولم أرك".

"كنتِ في أي قسم؟"

"كنت في قسم الجراحة".

"يبدو أنني عرفت السبب.. لقد كنت أمس في قسم الأورام".

مددت يدي إليها مع ابتسامة خفيفة مطمئنة إياها لم ترها من خلف الكمامة.. مدت يدها ببطء لتصافحني: "تشرفنا".

"الشرف لي".

"كنت تسأل عليّ.. فلماذا؟"

"دكتور محمد يريدك".

"دكتور محمد عبد العزيز.. إنه ليس يومه.. لقد كان هنا بالأمس.. اجعله خيرًا يا إلهي".

"إن شاء الله سيكون خيرًا".

"فلتنتظرني قليلاً حتى أنادي على إحدى زميلاتي لتتسلم مني العنبر قبل أن أذهب".

"لا يوجد وقت.. فلتذهبي أنتِ سريعًا وأنا سأنتظرك هنا حتى تعودي".

"شكرًا.. حقًا لا أدري كيف أشكرك".

"نحن هنا لمساعدة بعضنا يا وفاء.. هيا اذهبي سريعًا كي لا تتأخري في العودة إليّ".

انطلقت تعدو بخطى واسعة.. دفعت الباب للخارج وهي تعدو.. الباب الذي يحتوي على لافتة واحدة.. "عنبر حديثي الولادة"!!!

*****

وفاء تجري في ذعر ودموعها على وجنتيها ومعها اثنان من الأمن نحو العنبر.

صوت يتردد من الميكرفونات الداخلية يأمر بإغلاق الأبواب وعدم السماح بخروج أي أشخاص.

باب عنبر الرُضّع يهتز مما يدل على أن الذي خرج لم يبتعد.

شخصان من الأمن يغلقان الباب الرئيسي بعد خروج شاب صغير يحمل حقيبة ويشكرهما على حسن الاستضافة أثناء مرضه.

خبر في الصفحة الأولى في جريدة اليوم التالي "اختفاء طفل من عنبر حديثي الولادة بمستشفى الحرية وأنباء عن تورط ممرضة مع عصابة لخطف الرُضّع".

شاب يدلف إلى عمارة قديمة يحمل طفلاً رضيعًا يبكي.

*****

دخلت إلى الشقة وأنا أغلق الباب بهدوء لكي لا يستيقظ الطفل ويبكي، وإن كنت أشعر أن صوت دقات قلبي يكفي لفضح أمري.. أخرجت الطفل من الحقيبة.. ينظر لي بعينين بريئتين صافيتين وعلى وجهه ابتسامة رقيقة.. ألهذه الدرجة تحكمت فيّ طبيعتي الوحشية؟ ألهذه الدرجة طغى الجوع والشره على آدميتي.. تحولت إلى لص! وأي لص؟ لم أعد أفرق عن الحيوانات والجوارح في شيء.. بدأ الطفل في البكاء في نفس اللحظة التي بدأت قطرات العرق البارد في التكون على جبيني وصدري الذي طفق يعلو ويهبط بعنف.. كنت أجاهد في تلك اللحظات لالتقاط أنفاسي.. الدوار يكتنف رأسي.. أحاول التحرك إلا أنني أترنح بعنف.. أشعر بضيق تنفس.. أستند إلى الحائط بيدي المبللة بالعرق.. الطفل مازال مستمرًا في الصراخ.. صوته العالي يفقدني أعصابي.. يدوي بكاؤه في رأسي فأشعر بالعِرق الموجود في الجهة اليمنى من رأسي ينبض بعنف.. ينذرني أن الصداع الهائل قادم بعد قليل.. وصلت للطفل ووضعت يدي على وجهه محاولاً منعه من البكاء.. جاهد الطفل بقدر حجمه.. كنت أخاف من افتضاح أمري رغم علمي أن المكان مهجور، إلا أنني وبالتدريج تحولت لإنسان جبان.. أخيرًا همد الطفل بين يديّ وصمت.. صمت للأبد.. تركته على المنضدة وتحركت للمطبخ.. أشعلت الموقد وجهزت آليات الطبخ.. خرجت من المطبخ أحمل السكين الضخم.. حسنًا، أنت تعرف ماذا حدث، فلا داعي لأقصه عليك مرة أخرى.. أخيرًا جذبت مقعدًا وجلست على الطاولة الملوثة بدماء الطفل الصغير.. وضعت طبقين أمامي.. أحدهما يحتوي على قطع اللحم المشوي والآخر يحتوي على سلطة خضروات.. قطرات الدماء تهبط إلى الأرض في رتابة وبطء.. صوت اصطدام القطرة بالأرض

يدق في رأسي كألف بندول ساعة.. نظرت للرأس التي بدأت في التغضن والاسوداد.. رائحتها الكريهة الآن تتداري خجلاً من رائحة الشواء الشهي.. خاطبتها وأنا ألوك قطع اللحم الناعمة الشهية ببطء: "أتمنى أن تكوني سعيدة الآن.. أنتِ الآن فخر جميع الأمهات على الإطلاق.. حوّلتِ صغيرك الذي لم يتعد العشرين ربيعًا لمجرم وقاتل وسفاح وخاطف رُضّع.. أتعلمين ما الذي ينقصني؟ الاتجار في المخدرات ومن ثم السلاح وسأدخل التاريخ من أوسع أبوابه.. حولتني لمسخ، ولماذا؟ من أجل تحقيق انتقامك!! ألم يكفكِ قتله؟! ألم يكفكِ التمثيل بجثته؟! ألم يكفكِ أكله بمفردك.. ما ذنبي أنا؟"

ألقيت الطبق الفارغ على الرأس التي لا تزال تنظر لي بعينين خاليتين من الحياة.. سقطت الرأس أرضًا.. انحنيت والتقطتها وأخرجت السكين منها بعنف.. خرج محملاً بقطع صغيرة من المخ وبعض اللحم.. لعقته في تلذذ وتشفٍّ وأنا أرمق الرأس بنظرات تحدٍ.. أمسكته واتجهت إلى المطبخ.. فتحت الفرن الداخلي وأشعلت النيران وألقيت الرأس بداخله وأخذت أتأملها في تلذذ والنيران تأكلها.. أطفأت النيران بعد أن تحولت الرأس لكتلة غير واضحة الملامح.. أخرجتها بملعقة خشبية وحملتها إلى الحقيبة التي بها بقايا عظامها.. ألقيت أيضًا بقايا الطفل الرضيع الذي التهمته في وجبة واحدة في الحقيبة.. امتلأت الحقيبة عن آخرها.. أغلقتها ووضعتها بجوار الباب الذي فتحته كي أتخلص من رائحة الاحتراق التي طغت على الشقة.. نظفت المنضدة بقطعة قماش مبللة بالماء ودخلت إلى الحمام لأغسل يدي، وتمنيت لو أن هناك طريقة تكفّرني عن شروري وأخطائي بسهولة غسل الماء للدماء

(١٠)

نمت يومها كما لم أنم من قبل.. نوم عميق لا تقاطعه أحلام أو كوابيس من أي نوع.. توقعت قبل أن أنام أن تهاجمني الكوابيس.. استيقظت فجرًا وأنا أشعر بالشبع التام.. حقًا لقد تغيرت كثيرًا، ولكنني في هذه اللحظات لم يعد الأمر يهمني.. خرجت إلى الصالة.. نظرت للحقيبة.. قررت التخلص منها.. لا يزال الوقت مبكرًا جدًا على أن يكون هناك أحد في الشارع، لا سيما في تلك المنطقة المهجورة.. أمسكت الحقيبة في يدي وفتحت الباب.. لفحني هواء الفجر البارد فشعرت بانتعاش.. ابتسمت تلقائيًا وأنا أشعر أن الهواء البارد يحد كثيرًا من الوحشية المستعرة في نفسي.. نزلت إلى الباب الرئيسي وأحكمت إغلاقه خلفي.. درت حول المنزل وانتقيت قطعة من الأرض خلف العمارة وانحنيت عليها.. اختبرت خامة التربة.. حسنًا ستصلح.. فتحت الحقيبة وأخرجت الرفش الذي وضعته فيها قبل أن أنزل من المنزل.. أخذت أحفر قليلاً.. شعرت بالتعب والإنهاك، وما يزيد الأمر صعوبة هي تلك الحركات الفجائية التي باتت تهاجمني من حين لآخر.. يبدو أن المرض يتمكن مني أكثر فأكثر.. الحفرة تتسع والصداع يزداد.. العرق يغمر جسدي بأكمله.. المسافة بين نبضات الألم تقل بالتدريج دلالة على اقتراب نوبة الصداع.. فتحت الحقيبة وألقيت العظام والرأس المتفحم فيها، وأمسكت الرفش وأخذت أهيل التراب عليها حتى انتهيت.. ساويت مكان الحفرة بحيث لا يبدو جليًا للعين.. بدأ نور

الصباح يغمر الكون بأكمله.. كنت مغطى بالعرق الذي اختلط مع التراب فكوّن طبقة طينية غطت جسدي وملابسي.. الألم يغمر جسدي كله.. نوبة الصداع على وشك البدء.. حركة فجائية أخرى هاجمت قدمي اليسرى.. ألقيت جسدي أرضًا وأنا أتنفس بصعوبة.. انتهزت الفرصة وجلست ساكنًا للحظات ألتقط أنفاسي فيها.. أحسست بحركة خافتة من خلفي.. استدرت بسرعة وتلاقت عينانا.. جرى سريعًا واختفى بداخل منزل قريب.. انتفض جسدي بشدة واتسعت عيناي.. هناك شاهد عليّ.. يجب أن أعثر عليه حالاً.. تحاملت على نفسي واستندت إلى يدي التي آلمتني جراء حادث الكوب.. تحركت بخطوات مترنحة حتى مدخل البيت المهجور.. الشمس بدأت تنير المكان شيئًا فشيئًا فجعلت الرؤية يسيرة دون أي شيء.. دخلت إلى مدخل البيت ونظرت إلى أسفل السلم المظلم.. ألقيت حجرًا صغيرًا في الظلام.. قط أسود صغير انتفض وأصدر صوت مواء صارخ وخرج يجري فجأة مما أصابني بالفزع.. مع صرخة القط سمعت حركة على السلم.. أطلقت لساقيّ العنان وأنا أصعد السلم بسرعة.. سلمة مكسورة أعاقت تقدمي.. سقطت أرضًا.. جسدي يئن من الألم.. تحاملت على نفسي.. لا وقت ليضيع.. لو خرج من هذا البيت المتهدم سينتهي كل شيء.. لقد رآني وأنا أدفن العظام ومن المؤكد أنه عرف المكان.. الأكثر تأكيدًا أنه رأى ملامحي.. تقدمت لشقة مخلوع بابها.. أشعر يقينًا أنه بالداخل.. أدخلها بخطى مترددة وأنا أتأمل صالتها الفسيحة شبه الخالية إلا من بضع قطع أثاث متهالكة.. أمشي ببطء محاولاً التركيز.. ليس هناك أي

مجال للخطأ.. سمعت حركة خافتة تأتي من غرفة جانبية.. دخلت إلى الغرفة ببطء محاولاً عدم إصدار أي صوت.. دخلت إلى الغرفة وتأملتها.. مروحة سقف صدئة معلقة إلى سقف أغلبه تهدم وانتشرت به بقع داكنة اللون وبعض العفن الذي تناثر هنا وهناك.. فراش متهالك تتوسطه بقعة بنية اللون كبيرة لا أعرف هل هي دم جاف أم شيء آخر.. كرسي بثلاث أقدام يستند للحائط في محاولة لإخفاء إعاقته.. دولاب كبير مغلق.. مشيت إلى الدولاب بهدوء وفتحته بقوة كبيرة منتظرًا أن أمسك به بداخله إلا أن الدولاب كان فارغًا.. في نفس اللحظة انطلق كالفهد من أسفل الفراش.. مكان الاختباء الأكثر شهرة في العالم.. لماذا لم أبحث هناك أولاً؟! انطلقت أجري خلفه بجسد منهك وخطى متثاقلة إلا أنني كنت واثقًا أنه سيقع في الفخ.. خرج من الشقة يعدو بقوة فلم ينتبه للباب المخلوع الذي عدلت من وضعه لكي يعرقل من يخرج.. وقع أرضًا بقوة واصطدم رأسه بعنف بالأرض.. يبدو أن السقطة أفقدته الوعي.. تأملته.. طفل من الأطفال المشردين يشبه القطط.. لم يتعد بعد العشر سنوات.. حملته على كتفي وأنا أجاهد نفسي كي لا أخرّ مغشيًا عليّ هنا.. هبطت إلى الشارع وتوجهت للحقيبة التي تركتها مكانها.. حملتها وتأملت مكان الحفرة في ضوء النهار.. لا بأس به.. لا يبدو جليًا للأعين.. صعدت إلى شقتي بسرعة بعد أن أغلقت باب العمارة جيدًا بالبوابة المعدنية.. وضعت جسده على الفراش وتأملته.. جسده متسخ للغاية، كما أنه نحيف للغاية.. يبدو أنه يعاني من سوء تغذية.. ضربته برفق على وجنته عدة مرات فبدأ يستعيد

وعيه.. فتح عينيه المرهقتين قبل أن ينظر لي بهلع ويتراجع على الفراش في رعب، إلا أنني طمأنته بابتسامة.. دخلت إلى المطبخ بعد أن أغلقت باب الغرفة عليه.. خرجت وأنا أعطيه شطيرة من اللحم المشوي.. لحم بقري هذه المرة وكوبًا من العصير الطازج.. خاف أن يمد يده في البداية لكنني طمأنته.. مدّ يده إلى الشطيرة وهو يلتهمها بنهم بالغ ولا يرفع عينيه من عينيّ.. كوب العصير شربه بأكمله مرة واحدة.. مسح فمه بيده.. أخبرته أنني جهزت له الحمام والماء الدافئ وملابس نظيفة قد لا تكون مقاسه ولكنها ستفي بالغرض.. استحمّ واسترخى جسده، وخرج من الحمام وبدأ خوفه تجاهي يقل شيئًا فشيئًا.. جلسنا على المنضدة نتبادل أطراف الحديث.. بدأ يطمئن إليّ.. قضينا اليوم نتحدث.. حكى لي عن كامل تفاصيل حياته.. والده الذي هجرهم وهو رضيع.. أمه التي لم تتحمل المسؤولية فتركتهم وهربت.. سنواته الخمس التي قضاها كمشرد.. تفاصيل كثيرة عن حياته قصها عليّ .. حياة تشبه حياتي إلى حد كبير.. وفي المساء قمت للمطبخ لأحضّر له العشاء.. ناديته، وعندما دخل إلى المطبخ بابتسامته التي تملأ وجهه؛ عالجته بطعنة في صدره وتبعتها بطعنة أخرى في بطنه.. نظر لي بعينين مندهشتين غير مصدقتين.. خيط من الدم الدافئ اللزج يسيل من بين شفتيه.. عذرًا يا صديقي، ولكن الجوع غريزة قوية.. الجوع أقوى من الحب يا صغيري.. سقط صريعًا على الأرض واستمر للحظات يرتجف قبل أن يسكن جسده تمامًا.. جررت الجثة إلى الخارج وأسجيتها على المنضدة، وشرعت أفعل ما أصبحت أجيده.. ضمنت وجبتي لمدة أسبوعين على

الأقل.. مرت الأيام وأنا أتغذى على لحمه، إلا أنه لم يكن شهيًا مثل لحم الرضيع.. بدأت أشعر بشهوتي لا تنقطع.. الصداع أصبح ضيفًا دائمًا.. الدوار والغثيان يزدادان بشراسة.. الحركات الفجائية زادت عن الحد الطبيعي.. أصبحت لا أسيطر على جسدي.. لابد من وضع حل لهذا الأمر.. الذي زاد الطين بلّة هو أنني كنت أنزف من أنفي فجأة وبغزارة.. أصبحت أخشى على نفسي، خصوصًا وأن نهاية هذا المرض واضحة أمام عينيّ.. الموت.. طبيًا وعلميًا لا بديل عنه.. لكن فكرة مجنونة طرقت على أبواب عقلي المريض.. إذا كانت النهاية آتية لا محالة.. والنهاية هنا هي شيء مسبّب.. فالمنطق يقول أننا إذا ألغينا السبب يُلغى تبعيًا المسبّبَ.. سأتخلص من المرض، ولكن كيف.. سأخبرك كل شيء في حينه.. ابتسمت ابتسامة عريضة وأنا أطمئن نفسي وأحبك خيوط خطتي.. خطة الخلاص.

(١١)

كنت أجلس في الغرفة الصغيرة في الظلام.. ممددًا على السرير مغمضًا عينيّ في استمتاع.. وفجأة.. فتحت عينيّ في هلع شديد.. حاولت أن أنظر في الظلام إلا أنني لم أرَ شيئًا.. صوت تنفس ثقيل ظهر بغتة في الغرفة.. كتمت أنفاسي وأرهفت السمع.. لا يزال الصوت مستمرًا.. حاولت أن أتحرك إلا أن صوت خطوات ثقيلة تقترب مني في رتابة منعني.. أحاول أن أسترق السمع بهدوء إلا أن شيئًا لزجًا وثقيلاً بدأ يزحف على قدميّ ببطء.. انتفض جسدي في رعب بالغ وحاولت أن أسحب قدمي بسرعة إلا أنه كان ثقيلاً.. حاولت أن أبعده عن قدمي إلا أنه كان يزحف في إصرار.. وصل إلى جذعي وبدأت أشعر بأنفاسه الثقيلة تثير القشعريرة في جسدي.. اقشعر بدني بشدة وارتفعت نسبة الأدرينالين للغاية في جسدي.. كنت أسمع صوت دقات قلبي العالي كصوت الطبول ساعة الحرب.. امتزجت مع الظلام الدامس وزادتها صوت الأنفاس المنتظمة في سيمفونية مرعبة للغاية.. فجأة.. لمحت زوجًا من الأعين البرتقالية ظهر قريبًا من جذعي.. لا أعلم كنه ذلك الشيء إلا أنني أعلم علم اليقين أنه يريدني.. حاولت التملص في رعب وتلك الأعين التي لا ترمش تتأملني وتلمع بصورة مخيفة، وأنا أشعر به يزحف على جسدي بإصرار غريب.. حاولت أن أصرخ إلا أن صوتي توارى في الركن البعيد هلعًا.. في الواقع محاولتي لم تزدني إلا رعبًا.. محاولتي كانت كالسوط الذي جلد آخر محاولاتي للتمسك بالأمان

النفسي.. أشعر الآن أنه يجثم فوق صدري.. عيناه تقابلان عينيّ.. مليئتان بالشر الخالص.. أشم رائحة أنفاسه الكريهة الثقيلة وأشعر بحرارتها تكوي روحي.. ساد الصمت التام وتوقف صوت الأنفاس إلا أن زوج العيون لا يزال هنا يلتمع أمامي في الظلام.. رغم قوتي إلا أنني للحظات شعرت كالقط الصغير المحاصر في ركن ضيق إلا أن الفارق أنه يعرف مما يختبئ وماذا سيحدث إذا أمسك به خصمه، أما أنا فلا أعرف خصمي ولا أعرف مشتهاه مني ولا أعرف ماذا أفعل لأتخلص منه.. فتح ذلك الشيء فمه وهمس بكلمات مبهمة مصحوبة برائحة أنفاس كريهة شعرت بها تتلوى على جلدي كثعابين مبعوثة من الجحيم.. اقشعر بدني للغاية.. تصاعدت العصارة الصفراوية بشدة.. أشعر أنني على وشك القيء إلا أنني أتماسك "جومباجو اليجيرنياو سوفاكو ماطن".. يردد الكلمات غير المفهومة بإصرار شديد.. اتسعت عيناي في رعب وعدم فهم.. كرر جملته الغريبة مرة أخرى "جومباجو اليجيرنياو سوفاكو ماطن".. أخيرًا وجدت صوتي.. حاولت التحدث بصوت قوي يطمئنني إلا أن الصوت الذي خرج مني كان مهتزًا ضعيفًا.. في الحقيقة أرعبني أكثر مما طمأنني: "لا.. لا أفهمك؟!"

أخذ صوت همسه يعلو بشدة.. تحوّل لصراخ هامس يؤذي الآذان.. يكرر جملته المبهمة في صرخات هامسة بصوت يجعل الجسد بأكمله يقشعر.. هالة ضوء باهتة تخرج من بين شفتيه.. ضوء خافت بدأ يُشع في الغرفة.. تبينت تفاصيل الغرفة على هذا الضوء.. الغرفة تهتز بعنف.. كل ذرة فيها تهتز بعنف.. وكلما ارتفع الصوت ازدادت هزة

الغرفة.. شقوق سوداء بدأت تنتشر في الحوائط والسقف.. دخان أسود بدأ يخرج من بين تلك الشقوق ليملأ سماء الغرفة معلنًا ضمها لمملكته الأبدية.. عفن لزج بدأ يظهر في أركان السقف.. قطرات سوداء عفنة تتساقط منه على الأرض.. تتحرك لتجتمع معًا مكونة شكلاً قبيحًا منفرًا على الأرضية.. الفحيح الصارخ استمر حتى اعتقدت أنه لن ينتهي.. صمت ذلك الشيء ونظر لي بعينين من لهيب مرعب.. فتح فمه في بطء ولكنه لم ينطق هذه المرة.. لعاب أسود لزج يتجمع على طرف شفتيه وهو يغلي.. قطرة قفزت من فرط الغليان في الهواء قبل أن تسقط.. تابعتها وهي تسقط وشعرت أن الوقت يتوقف ليمر ببطء شديد.. سقطت على يدي.. شعور غريب.. تخيل رجفة تسري في جسدك والبرد يهاجم عظامك كلها في آن واحد.. شعرت بها كقطرة من الجحيم المستعر تغلي على جلدي.. بل تكاد تنفذ إلى روحي لتحرقها.. مد يديه القبيحة ليحيط بها وجهي في عنف وهو يضغط على جانبي وجهي بقوة قبل أن يهمس بصوت كالصراخ "جومباجو اليجبرنياو سوفاكو ماطن".. عمّ الصمت المكان بأكمله بعد تلك الجملة الأخيرة، وبدأ ذلك الشيء ينسحب بهدوء شديد إلى الخلف.. أخذ جسدي يرتجف بشدة وكأنني لا أستطيع التحكم فيه.. لحظات قليلة مرت قبل أن أعتدل على الفراش وأشهق بقوة كبيرة وأستند بيدي إليه وأنا أنشج بعنف قبل أن أفتح عيناي بقوة.. جلست على فراشي متذكرًا ذلك الكابوس المرعب الذي زارني.. حانت مني التفاتة إلى أركان السقف حيث كان يتجمع السائل اللزج.. إلى الجدران التي تشققت وخرج منها الدخان

الأسود القذر.. لا شيء.. كل شيء في موضعه.. كل شيء طبيعي كما كان.. ألم بشع يئن من يدي اليسري.. تأملت الحرق الصغير الموجود مكان سقوط قطعة السائل.. على شكل عملة معدنية.. هل كان حلمًا؟! هل كان حقيقة؟! ضغطت على الحرق الصغير فشعرت بأشواك تخز روحي قبل أن تخز يدي.. لم أعد أفهم شيئًا!! ما الذي حدث؟

(١٢)

في الصباح الباكر وفي الموعد المحدد وصل أول وأهم أطراف خطتي.. سمعت صوت طرقات على الباب المعدني بالأسفل، فضغطت على الزر الذي فتحه وانتظرت قليلاً حتى سمعت صوت الطرقات على الباب الخشبي.. فتحت الباب وتأملت القادم بهدوء.. شيخ طاعن في السن قصير وضعيف البنية.. يقف محنيًا ظهره أمام الباب.... شعره أبيض قصير ثائر غير منتظم، يحاول السيطرة عليه بطاقية بيضاء صغيرة.. أبيض البشرة وإن لوحتها الشمس لتتحول للون الخمري.. يقف خلفه غلام لم يتمّ سنته التاسعة أو العاشرة بعد.. قوي البنيان مفرود الظهر.. عيناه حادتان كعيني الصقر، يرمقني بهما في بلاهة غير مريحة.. أشرت لهما بالدخول فدخلا.. وقف الشيخ في منتصف الصالة وهو يتأملها بعينين ناعستين، لا تعرف أهو مستيقظ أم نائم.. اقتربت منه وقبل أن أضع يدي على كتفه التفت لي بحدة وابتعد عن مسار يدي!! مرت لحظات وهو يتأملني قبل أن يتحدث بصوت خافت مشروخ: "ماذا تريد يا منير يا ولدي؟"

الطفل لا يزال ينتحي بأحد أركان الغرفة صامتًا مطلقًا لجام عينيه الحادتين على روحي.. نظرت للشيخ وبدأت أشعر بفداحة الأمر.. حاولت تجميع شتات نفسي وأنا أتحدث: "كيف عرفت اسمي؟"

ابتسم في غموض وعاد ليغلق عينيه ببطء وهو يهز رأسه باستمتاع من لحن خفي لا يسمعه غيره.. لا يزال الطفل لا يتحرك ولا يرمش.. حاد

النظرات كالصقر.. فتح الشيخ عينيه وهو ينظر لي بشدة: "ماذا تريد منهم؟"

"لا أستطيع أن أخبرك.. الموضوع شخصي جدًا"

"الموضوع ليس لعبة أو مزاحًا.. الموضوع خطير جدًا.. إن لم يكن الأمر هامًا فسنصبح أنا وأنت من الماضي.. ربما احترقنا أحياء".

"الأمر هام ولا تخشَ عليّ.. سأحاول أن أوصل الأمر له بأسرع وأسهل طريقة ممكنة.. لا تقلق".

"الأمر يعود لك.. أنا معي من يحميني.. أنا أخشى عليك".

ختم جملته الأخيرة بالنظر بطرف عينه حيث يقف الصبي بلا حراك.. لأول مرة يتحرك الصبي.. تلاعبت ابتسامة شريرة على شفتيه لجزء من الثانية قبل أن تختفي ويعود لسكونه المقلق لثوانٍ معدودة، قبل أن يتحرك الطفل لمنتصف الصالة في خطوات بطيئة مقلقة.. هل كانت الالتفاتة تلك هي كلمة السر؟ هل هذا الطفل هو الذي يحميه؟ الحق يقال إن الطفل الصغير أشد إقلاقًا من الشيخ.. توسط الطفل الصالة ونظر لي نظرة أخيرة قبل أن ينظر للأرض وهو يرفع يده في الهواء ويبسطها أمامه كمن يتسول.. أخرج الشيخ من جيب جلبابه قلمًا أزرق اللون وخطّ به على يد الصبي شكلاً مستطيلاً.. نظر لي فوجدني أتابعهما بتركيز شديد.. في الحقيقة بدأت أشعر بالخوف.. أمرني الشيخ بأن أغلق الأضواء والشبابيك.. باختصار يريدها أن تغرق

في ظلام دامس.. أظلمت الشقة تمامًا إلا من بعض أشعة تافهة من الضوء تتسلل بفضول من بين ثنيات الشيش المغلق.. ليس ألعن من الظلام إلا الضوء الخافت.. الموطن الأصلي للخيالات والتهيؤات والأفكار السوداء المظلمة.. أخرج الشيخ مبخرة كبيرة من جوال كان يحمله الطفل.. كيف لم أرَ الجوال عندما دخلا إلى الغرفة.. هناك شيء غامض يحدث.. بدأ الخوف ينمو بداخلي ويكبر حتى صرت لا أسيطر عليه.. وضع البخور في المبخرة العملاقة وملأ الدخان الشقة وبدأت أشعر بدوار.. تساءلت بيني وبين نفسي هل وضع الرجل شيئًا ما يثير الدوار في المبخرة أم أن ما أشعر به من تبعات مرضي اللعين؟! أخرج ورقة بيضاء خطّ بها بعض الكلمات التي حاولت أن أقرأها فلم أفهم منها حرفًا واحدًا.. رسم بها بعض الرسوم العجيبة ثم ثبتها على رأس الطفل الذي نكس رأسه، وثبتت الورقة تمامًا ولم تتحرك أبدًا، حتى إنني تعجبت كيف يتنفس ذلك الطفل تحتها دون أن تهتز؟! مضى الرجل يتمتم بكلمات إلى المبخرة التي لاحظت اهتزاز نارها في عنف متتابع كأنما هناك شيء ما يتحكم بها.. مدّ الرجل يده إلى جيبه وأخرج مخروطًا ورقيًا مغلقًا من جيبه، فتحه وأخرج منه مادة زرقاء كالزهرة التي تُستخدم في الغسيل، وضعها على يد الطفل الممدودة أمامه وأخذ يساويها داخل يده لتكون هرمًا داخل ذلك المستطيل الذي رسمه من قبل.. أخذ يتمتم بكلمات غير مفهومة وبدأ الجو يتوتر من حولي.. كنت أشعر أن هناك شيئًا ما يحدث لا أعرف كنهه.. فجأة انقبضت يد الطفل الممدودة وقبضت على المادة الزرقاء بعنف، مما سبب تطاير بعضها من يده إلى الخارج لتتساقط إلى الأرض.. الأمر الغريب أنني خُيل لي أنها تبخرت قبل أن تصل إلى الأرض وتحولت إلى بخار أزرق باهت

تطاير بسرعة إلى ما تحت الورقة، التي بدأت تتلوى بشدة على وجه الطفل المنكس، الذي ارتفع ببطء إلى أن وصل للمستوى الطبيعي للرؤوس.. بدأت تسّود ويبدو أنها تحترق بفعل نيران غير مرئية.. انكمشت على نفسها قبل أن تتحول إلى رماد باهت تساقط على الأرض في شكل هرمي منتظم.. فتح الطفل عينيه اللتين اتخذتا شكلاً مرعبًا.. نظرت جيدًا إلى عينيه التي اختفى سوادهما وحلّ محله بياض محمر، وأخذ يتأمل الغرفة من حوله إلى أن وصل بنظره إلى الشيخ الذي كان قد اتخذ وضعه الطبيعي، محني الظهر ناعس النظرات ولم يبدُ أنه يهتم كثيرًا بالأحداث الجارية، أو أن هذه هي طريقته في التعبير عن اهتمامه، وحرّك الطفل رأسه يتأمل باقي الشقة إلى أن وصل للمنضدة التي حوّلتها إلى مذبح، وابتسم ابتسامة صغيرة قبل أن يلتفت إليّ ويُثبت أنظاره عليّ إلى ما يزيد عن الدقيقة.. استمر الصمت والطفل يقف أبيض العينين بلا حدقتين مثبتًا أنظاره إليّ، وأنا أتحاشى أن تتلاقى نظراتنا، إلى أن اصطدمت عيناه بعينيّ دون قصد مني.. أحسست كأن هناك مغناطيسًا مثبتًا إلى عينيه يجبرني على النظر إليها.. حاولت جاهدًا أن أحوّل نظري عنه إلا أنه لا مفر، يبدو أن عينيّ لن تنصتا لأوامر عقلي هذه المرة، كأنما أعلنتا استقلالها عن جسدي.. عيناه البيضاء تتأملان وجهي، أشعر بهما كأنهما ألف يد تبحث بداخل روحي وتعبث بها.. قبل أن أسمع صوت الرجل المسن وهو يسأل الطفل:

"هل تراهم؟!"

هزّ الطفل رأسه بحركة آلية بطيئة دون أن يرفع عينيه عن عينيّ، التي أحسست كأنما هو ملكهما، كما أحسست أنه بالتدريج يملك روحي.. قبل أن يفتح الطفل فمه ببطء كأنما هو على وشك أن يقول أمرًا هامًا، ولكنه لم يتحدث.. لحظات قليلة مرّت عليّ كأعوام طويلة، قبل أن أسمع كلمات لا أعرف بالتحديد هل تأتي من اللامكان أم من كل مكان.. لا أعلم هل أسمعها بأذني أم أسمعها بعقلي.. أربعة كلمات ترددت في ذهني بكثرة، ويتردد خلفها صدى صوت رهيب.. أشعر أن الأحداث تجري أمامي بالتصوير البطيء.. صداع هائل يجتاح رأسي.. شقتي تتحول إلى ما يشبه اللامكان.. المكان يتحول من حولي إلى ما يشبه القطن الأبيض وأنا أقف فيه.. أشعر أنني انتقلت إلى بعد آخر.. اللون الأبيض يسيطر على الموجودات جميعًا، كأنني أقف في قلب سحابة.. الكلمات تتكرر في رأسي بإصرار وصدى الصوت يلهب أفكاري.. البطء الشديد في تحول الأحداث يصيبني بضيق هائل، ويزداد الصداع قوة وعنفًا.. مطارق هائلة تدق أجراسًا من جحيم في جوانب راسي.. ذلك الطرق الهائل الذي يتردد بداخل رأسي كأنما هي مجوفة.. أشعر أن هناك لونًا أحمر باهتًا يتسرب إلى الحوائط ليدنسها، كأنما هو خطيئة في جسد طفلة بريئة.. كلمات تُرسم على الحوائط البيضاء بلون أحمر تسيل جوانبها كنقاط من الدم في رسغ حُفر فيه بشفرات من نيران مستعرة:

"جومباجو اليجيرنياو سوفاكو ماطن".

(١٣)

تلك الكلمات الملعونة التي تتكرر في إصرار وأنا لازلت لا أفهم معناها، ولا يزال البطء الشديد هو العامل الأكثر تأثيرًا على الأحداث الجارية.. أرى إبرتين تقعان من علو لا أعرف من أين أتتا أو من الذي أسقطهما.. تتابعان السقوط ببطء شديد إلى أن تأتي مرحلة ما وتتساوى الإبرتان معًا وتصطدمان معًا، ويحدث صوت رنين ينتشر ببطء مخيف كأنما هو جيش من الشياطين يزحف ليحتل المكان ويعلن فرض سيطرته عليه.. بعد أن انتهى الرنين بدأت سرعة الأحداث تتغير لتعود إلى مسارها الطبيعي، وإن سببت لي تلك النقلة ما يشبه تأثير ما بعد الصدمة.. الأحداث التي تجري بسرعتها الطبيعية أشاهدها أمام عينيّ كأنما تجري بسرعة البرق، بدأت كل تلك المشاهد الغريبة تنزاح من أمام عينيّ وبدأت تتضح لي معالم شقتي، وبدأت أرى أثاث الشقة يعود إلى مكانه.. أحسست بالدوار يزداد وبدأت أشعر أن جدران الغرفة تقترب مني في سرعة، وما إن تقترب حتى تلوذ بالفرار وتبتعد مرة أخرى.. أشعر أن الغرفة تدور من حولي فألقيت بجسدي فوق أول مقعد صادفته، وأغمضت عينيّ وتركت الوعي ينحسر مني ببطء.

انتفض جسدي كله في عنف وأنا أفيق لأتأمل المكان من حولي، وما إن شاهدت شقتي حتى اندلعت زفرة ارتياح من بين ثنيات نفسي الملتهبة جراء رتم الأحداث المتواتر غير المستقر.. قمت قاصدًا دورة المياه لكي

أدفن رأسي تحت الماء البارد، كعادتي كلما أفقت من أعراض ذلك المرض اللعين، وما إن دخلت إليها حتى طالعني مشهد بشع للغاية.

جدران الحمام ملوثة بالدماء التي يتخللها آثار أيدٍ تنزلق على الحائط، كأنها كانت تحاول التشبث بأي شيء يأتي في طريقها، والسقف تتخلله الدماء، وكأن أحدهم حاول أن يرسم صورة سريالية بالدماء في ذلك الحمام.. تراجعت في رعب إلا أن إحساسًا داخليًا أو نداءً سريًا يتردد بداخلي دفعني ألا أخاف وأن أخطو إلى الداخل.. الستارة المحيطة بحوض الاستحمام تهتز في خفة كأنما هناك من يتنفس خلفها بأنفاس متقطعة.. مشيت بقدمين تهتكتا من شدة الخوف، ومددت يدًا تجتاحها الرجفة وجذبت الستارة بحركة واحدة سريعة، كأنني أنزع ضمادًا من على جرح حديث.. نظرت إلى المشهد الذي يطالعني وشعرت كأنني أرى نهايتي تمر أمام عينيّ.. أحسست بجسدي يتحرك حركات لا إرادية، يبدو أن الصدمة زادت من حدة المرض لفترة صغيرة، قبل أن يهدأ جسدي ويعود ليعلن استسلامه لسيطرة المخ عليه.. جسدان مسجيان في حوض الاستحمام المليء بالدماء.. يبدو أنهما تعرضا لأبشع نوع ممكن من التعذيب.. جروح طولية وعرضية في جسديهما التي كانت عارية.. الملابس تحولت إلى رقع بالية مستهلكة، ممتزجة بالدم وأشياء أخرى لا اعرف كنهها لا تستر ولا تغطي.. جروح كبيرة يظهر من تحتها اللحم جليًا واضح المظهر، لدرجة أنه أثار شهوتي وجعلني أخرج من تأثير الصدمة لثوانٍ قليلة قبل أن تتحول شهيتي إلى اشمئزاز بشع، وجروح أخرى تظهر من تحتها العظام.. جسدان أحدهما بلا رأس.. لا

أعلم أين ذهبت رأسه، والآخر يرتعش في الفترة الأخيرة من خروج الروح منه.. حاول أن يمد يده إليّ إلا أن الوهن منعه، ورأيت قدمه اليسرى تتحرك تحته حركة لا إرادية منتظمة برتابة، اقتربت منه فهمس في أذني بصوت مبحوح بكلمات بسيطة: "الجن.. أول مرة.. دجال.. انقلبت اللعبة لجد.. اهرب.. اهرب.. اهرب".

سألت نفسي والخوف يزداد بداخلي: لماذا كرر كلمة اهرب ثلاث مرات، وما هي تلك اللعبة التي انقلبت إلى جد؟ بدأت أستنبط من كلماته القليلة أنه دجال لا يستطيع تحضير الجن، وأن كل الأمور التي رأيتها منه هو وتابعه كانت مجرد مشهد اعتادا تكراره على العشرات، بل وربما المئات من البشر الذين يستأجرونهم لقضاء حاجيات وأعمال من العالم السفلي، كالربط والتفرقة والأعمال والأسحار والشعوذات، وغيرها من الأشياء التي يتمناها الناس ويحاولون الحصول عليها بدون بذل أي مجهود سوى الإتصال بالعوالم السفلية.. نظرت لجسده الذي أسلم الروح لبارئها، وتساءلت كم شخصًا خدعه باسم تلبية الأعمال المستعصية وفتح أبواب كان يعتقد المرء أنها مغلقة مستحكمة؟ إذن هو تاجر للأوهام وليس شيخًا طاعنًا في السن توصل للسر الذي منحه تذكرة العبور إلى العوالم المظلمة.. وهذا الطفل الذي أعطاني إيحاءً بأنه خارجٌ عن الطبيعة وخارقٌ للعادة.. الأمر برمته خدعة، وبالتأكيد ظني كان في محله أن هذا الرجل لم يضع بخورًا في المبخرة، وإنما وضع بها شيئًا ما يسبب الهلوسة والخرافات.. اللعبة انقلبت إلى جد، ولكن من الذي فعل بهم هكذا، وما تلك البشاعة وما هذه القوة التي

أطاحت بشخصين بهذا الشكل وتسببت في كل تلك الدماء؟! سمعت صوت حركة من الداخل فانتبهت من دوامة الأسئلة التي كانت تجذبني لها.. خرجت إلى الصالة وأنا أنوي التوجه إلى غرفة النوم.. مررت في الصالة بخطوات سريعة قبل أن يلفت انتباهي شيء ما، ومازال صوت الحركة يرتفع من داخل الغرفة.. تراجعت عدة خطوات للخلف وأنا أتأمل الكلمات التي رُسمت على الجدار بقطرات الدم التي تسيل على الحائط في مظهر بشع، لترسم الكلمات التي احترت فيها.. أربعة كلمات تطاردني منذ فترة ولم أفهم معناها بعد ولم أفهم اللغة التي كُتبت بها.. من الذي كتبها بالدماء في هذا المكان، ولماذا الآن بالذات بعد أن أفقت من تلك الغيبوبة التي سببها لي ذلك الدجال، وصبيه الذي حاول بإيحاءات غير مباشرة إضفاء جو من الغموض حوله؟ من المتسبب في وجود جثة معذبة ممثل بها وبدون رأس؟ أفقت من أفكاري وأنا أتساءل عن الرأس، ترى أين هي؟! سمعت صوتًا يشبه صوت سقوط شيء ثقيل على الأرض من داخل الغرفة، فاتجهت إليها بخطوات مرتعشة واهنة، وحاولت فتح الباب بأيدي مرتعشة.. الخوف يشتبك مع الفضول في معركة رهيبة، قبل أن ينتصر الفضول ليقودني نحو الغرفة، وأنا أمسك بمقبض الباب وأديره وأدفع الباب ببطء وأمد رأسي إلى داخل الغرفة لأرى، ولكن الظلام الذي يخيم على الغرفة منعني، فمددت يدي تزحف على الحائط متجهة إلى زر الإضاءة، وفتحته ورأيت الغرفة طبيعية ليس بها أي شيء غريب.. خطوت إلى داخل الغرفة ببطء وأنا أتأمل الغرفة كمن يراها لأول مرة، وما إن وقفت في منتصفها حتى توهج ضوء الغرفة ليغشي بصري، فأغمضت

عينيّ لوهلة قبل أن أفتحها لأجد أن المصباح قد انطفأ وعمّ الظلام المكان.. تراجعت بخطوات بطيئة وإن كنت لم أجرؤ على الالتفات للخلف، وبخطوات مترددة وصلت للحائط.. تلمسته بيديّ وأنا أبحث عن زر الإضاءة فلم أجده، مما اضطرني أن ألتفت برأسي بحثًا عنه.. ما إن أشحت برأسي إلى الحائط حتى خُيل لي أن شيئًا ما تحرك في هذا الظلام.. لم أعرف أهي خيالات سببتها الظلمات المحيطة بي أم هي حقيقة وهناك شيء ما معي في الغرفة.. أنرت الغرفة وأغلقت عينيّ للحظات قبل أن أرى الرأس يتدحرج أرضًا إليّ من الركن البعيد.. انحنيت لألتقطه، وقبل أن ألمسه بيدي اندلعت صرخة مدوية هائلة وملأت فراغ الغرفة.. رجت تلك الصرخة كياني.. كانت بشعة لا تُحتمل.. صرخة كصوت ألف شيطان يحترق.. تتردد بصدى لزج لحوح لا يختفي.. وضعت يدي على أذني إلا أن الصرخة تعلو.. أشعر أن طبلة أذني قد تنفجر.. أحسست بسائل دافئ لزج يهرب من فتحتي أذني ويشق طريقه على يدي، قبل أن أشعر بخيط آخر من الدم يسيل من أنفي.. تهاوت قدميّ تحتي قبل أن أسقط على ركبتيّ على الأرض، وأنا مازلت أضغط أذنيّ بكفيّ محاولاً منع تلك الصرخة من أن تثير جنوني.. ألم رهيب لا يحتمل يكتنف رأسي، ولكنه لم يأتِ وحيدًا هذه المرة.. دوامة هائلة من الظلام تحاول أن تجذبني إليها.. لقد شارف مخزون احتمالي على الانتهاء، ولا أظنني أستطيع الاستمرار أكثر من ذلك.. انهرت أرضًا ساقطًا على وجهي، ووجدت الرأس بجواري ينظر لي بعينين ميتتين قبل أن أستسلم للظلام وأسقط أسير دوامته.

(١٤)

فتحت عينيّ ببطء وأنا أتذكر كل الأحداث التي حدثت لي.. لا أزال ساقطًا على الأرض.. اعتدلت وزحفت إلى الحائط واستندت إليه.. آلام رهيبة تحيط بكل ذرة في جسدي.. لكن آلام التفكير كانت تطغو عليها.. أخذت أذكر كلمات أمي قبل أن تموت.. هل قالت المرض يسبب الجنون؟ لا أتذكر.. لقد قالت كثرة فقدان الوعي والحركات المفاجئة وعدة أشياء أخرى لا أتذكرها.. كل الأشياء الغريبة بدأت تحدث لي بعد أن استسلمت لشهوتي وتركتها تقودني.. هل زادت نسبة المرض مما أدي لفقداني توازني النفسي؟ من غير المعقول أن أكون جننت وأنا أفكر بتلك الطريقة المنظمة!! ومن غير المعقول أيضًا أن أكون عاقلاً وهناك جثث تتقطع من تلقاء نفسها حولي.. من المستحيل أن تمشي جثة بلا رأس حتى تصل للحمام أو أن تمشي رأس بلا جثة حتى تصل لغرفة النوم!! هل أنا من قتلهم؟! كيف لي أن أقدر على اثنين وأنا في تلك الحالة الصحية السيئة؟ ثم إنني على وعي بجميع جرائمي السابقة!! لا.. لا، من غير المعقول أن أكون أنا المتسبب في تلك المذبحة.. بدأت الالام تخبو شيئًا فشيئًا.. الأمر الأهم الان أن أقوم لأجد حلاً لتلك الجثث، فلأتخلص منها قبل أن تهاجمني شهوتي مرة أخرى.. قمت أتجه إلى الحمام في خطوات مترنحة وأنا أراقب الأربعة كلمات التي خُطت بالدم البشري على جداري.. دخلت وبصعوبة أخرجت جثة الشيخ الذي أسلم الروح لبارئه.. لم تكن ثقيلة ولكنني كنت مرهقًا..

وضعتها على المنضدة أو على المذبح.. دخلت لأحضر سكينًا ضخمًا والحقيبة التي أستخدمها في نقل تلك القطع والجثث لأدفنها في المكان الذي اعتدت عليه.. قطعتها لقطع متوسطة الحجم ووضعتها في الحقيبة.. هناك متسع للجثة الأخرى.. الدماء كانت تملأ الأرض والمنضدة وملابسي ووجهي.. طعم الدماء على لساني يثير شهيتي إلا أنني أتماسك وأقاوم.. يكفي كل ما وصلت إليه.. لا أريد أن أضعف مرة أخرى.. اتجهت للحمام وأحضرت جثة الطفل المريب.. حتى في موته ترك لي لغزًا! حملته إلى المنضدة وقطعت جسده هو أيضًا.. بالطبع لم أنسَ عظام المشرّد ولا الرأس الموجود في الغرفة.. اتجهت للغرفة وتأملت الرأس الساقط أرضًا قبل أن أحمله وأنا أديره للجهة الأخرى.. لا أريد أن تتلاق عينانا.. وضعتهم بالحقيبة الكبيرة وبالكاد أغلقتها.. نظرت للساعة.. كانت قد تجاوزت الثانية بعد منتصف الليل.. موعد مناسب.. هبطت إلى الشارع وبدأت في تنفيذ مهمتي.

*****

انتهيت وصعدت إلى شقتي مرهقًا ومغطى بالطين.. الصداع يهاجمني والدوار يعاونه.. أول ما لاقته عيناي عند دخولي الشقة هو الكلمات المكتوبة على الحائط.. سأستحم وأخرج لأمسحها.. لقد شارف الفجر.. انتهيت من حمامي سريعًا وبدلت ملابسي المتسخة.. أحضرت دلوًا مليئًا بالماء ووضعت به بعض الصابون السائل وقطعة من القماش.. خرجت إلى الصالة وغمرت قطعة القماش في المزيج المنظف.. ضغطت

بيدي عليها وأنا أمررها على الحائط وأرى الكلمات وهي تبهت.. كررتها عدة مرات حتى انتهيت بالكامل من مسحها.. أصبح الحائط الآن نظيفًا.. دخلت إلى الحمام لأضع الدلو الذي امتزج ماؤه بالدماء، وخرجت لأتوجه لغرفتي الآن، وفي الصباح سيكون هناك أعمال أخرى لأعرف ما الذي يحدث لي.. بمجرد مروري في الصالة فوجئت بالكلمات مكتوبة مرة أخرى وتقطر دمًا وكأن شيئًا لم يكن.. تتجهت إليها ومسحتها بيدي.. أتدري حين تُمسح الدماء من على جرح حديث، ثم ببطء شديد يبدأ الدم في الخروج منه حتى يملأه مرة أخرى؟! هذا بالظبط ما يحدث أمامي.. أكاد أجن.. كيف يحدث هذا؟! سمعت صوتًا في غرفة النوم.. تلك الغرفة الملعونة.. دخلت إليها ببطء وحرص.. هذه المرة لم يكن بابها مغلقًا ولا ضوءها مطفئًا.. تأملت كل شيء في الغرفة.. كل شيء على ما يرام.. بل إن الأصوات الغريبة توقفت.. هل أنا أتوهم؟ ربما.. الشعور بالخوف يهيء للمرء كل الأشياء المخيفة ويجسد له أعتى كوابيسه.. خرجت من الغرفة وأغلقت بابها خلفي.. وما إن التفتُّ حتى وجدته يقف أمامي صامتًا.. الآن تأكدت أنني جننت رسميًا.. هذا أمر لم يعد فيه نقاش.. الصبي المريب الذي حضر مع الشيخ يقف أمامي.. بعد أن قطّعته.. يبدو أن أحدهم وجده وأخاط جسده ببعضه البعض بخيط أسود سميك.. جسده كاملاً وإن كان غير منسق، فقطع اللحم لم تلتحم ببعضها البعض.. أراقب بهلع الخيط الأسود السميك وهو يربط قطعه ببعضها.. لم يكن هذا هو الأمر الوحيد المرعب.. وجهه كان أكثر إرعابًا.. جفناه مخيطان إلى وجهه

بذلك الخيط السميك وفمه أيضًا مخيطًا به.. يقف أمامي ثابتًا بلا حراك، وأنا قد شلّ الهلع قدميّ.. حاول التحرك إلا أن جروحه كما يبدو آلمته.. بدأ الدم ينزّ من جروحه المخيطة ببطء، وظهرت على وجهه علامات الهلع.. حركات سريعة يأتي بها بوجهه وجذعه ثابت لا يتحرك.. يتحرك وجهه بعنف.. بدأت أفهم ما يفعل.. إنه يحاول أن يفتح عينيه ويصرخ ولكن الخيوط تمنعه.. يحاول بإصرار.. بدأت الدماء تغطي وجهه وذقنه وتتساقط للأرض في غزارة.. يحاول بشدة.. بدأت إحدي عينيه تُفتح والخيوط تُمزق أجفانه بعنف.. الدماء تغطي عينه بالكامل.. العين الأخرى تُفتح هي أيضًا.. الدماء تزداد.. تغطي وجهه بالكامل.. شفتيه تتقطعان.. قطع لحم كاملة من شفتيه علقت بين الخيوط وهو يحاول جاهدًا أن يصرخ.. بدأت صرخته تظهر ولكنها ضعيفة من شدة الألم.. مدّ يده إلى وجهه ليمسح الدماء لكي ينظر إليّ.. أصابع كفيه أيضًا مخيطة بعضها إلى بعض.. رباااه!! من الذي فعل هذا؟ أخيرًا حرر شفتيه الممزقتين وظهر من خلفها فمه وصرخته تعلو بلا انقطاع.. مسح الدماء بكفه المخيطة من على عينيه.. نظرت لسوادهما.. ليس للحدقتين.. لا وجود للحدقات في الأمر.. العين بأكملها سوداء.. شعرت بالرعب البالغ.. حاولت أن أتحرك فلم أستطع.. شيء ما يثبتني مكاني بقوة هائلة.. حاولت الصراخ إلا أنني لم أجد صوتي.. أتابع المشهد البشع الذي يحدث أمامي والدماء تحيط به من كل صوب.. أخيرًا بدأ صراخه يتوقف وينظر لي وعيناي تتسعان بهلع.. كلمات بصوت أجش خشن كأنه قادم من الجحيم تنطق بها

شفتيه المقطعتين: "أنت لا تعرفني ولكنني أعرفك.. لقد أصبحت تابعي.. وصمتك بوصم العار لتصبح ملعونًا.. خلاصك في يدي أيها الفاني".

أنهي كلماته وتسائلت بيني وبين نفسي عن وصمة العار التي يقصدها.. لم يطل تفكيري.. شعرت بيدي اليسري تحترق.. نظرت لها فوجدت الحرق الصغير الذي خرجت به من الحلم يفور ألمًا.. نظرت له مرة أخرى ورأيت ابتسامة ساخرة تتكون على شفتيه المقطعتين اللتين تقطران دمًا.

(١٥)

"خلاصك في يدي أيها الفاني".

توقعت بعدها أن يختفي أو أن أفقد وعيي أو أن يحدث أي شيء يفتح لي مجالا هروب من هذا الجنون.. لم أكن تأكدت هل أنا فقدت عقلي أم أحتفظ به.. جزء مني يتمنى أن أكون فقدت عقلي، هكذا يتوفر لي تفسير منطقي لكل ما يحدث، وهكذا أيضًا أفسر الكائن المتواجد أمامي.. كان لا يزال يقف هناك في الركن صامتًا مبتسمًا.. بركة الدماء تتسع من حوله.. سألت نفسي أكثر من مرة من أين أتت كل هذه الدماء؟ بأعين ترتجف خوفًا راقبته.. جسدي يرتعش بشدة، لا أعلم أمن شدة الخوف أم من المرض اللعين؟! لم أعد أدري شيئًا.. لم أعد أحتمل، ولا أظنني قادرًا على الصمود بعد ذلك.. كنت أعاني من لعنة مرضي القاتل.. ربما لم يكفني الأمر فبحثت عن لعنة جديدة.. هل أنا عاشق للدراما؟! لم أعد أدري شيئًا على الإطلاق.. حتى التفكير المنتظم صار أمرًا عسيرًا.. لم أعد أحتمل.. حقًا لم أعد أحتمل.. قاطع أفكاري صوت خشن عميق: "لقد حذرك العجوز أن الموضوع خطر.. لم لم تستمع له؟!"

أصابتني الدهشة.. كيف سمع أفكاري.. من هو؟! من أين أتي هذا الصوت.. لحظة.. إذا استطاع أن يسمع أفكاري مرة فإنه يستطيع أن

يفعلها مئات المرات.. أي إنه يسمعني الآن.. هل يسمعني هو التعبير الصحيح أم يقرأ أفكاري.. رباااااه.. يجب أن أتوقف عن التفكير.. يجب أن أتوقف عن التفكير حالاً.. ما زلت أفكر.. ما الحل الآن؟! تزداد ابتسامته بشدة وهو مازال لا يتحرك.. قررت أن أواجهه.. ما الذي بيدي لأخسره.. لم يعد في العمر إلا القليل، اقتربت منه بأقدام متهالكة مرتعشة وقلبي ينبض بشدة.. خاطر بداخلي يريدني أن ألمسه لأتأكد أنه موجود.. لكن قلبي لن يحتمل.. حاولت أن أنظر لعينيه إلا أن جروحهما منعتني.. للحظات شعرت بأنني لن أشتهي اللحم مرة أخرى.. تمالكت أعصابي واستجمعت البقية الباقية من شجاعتي وأنا أحاول أن أظهر علامات التماسك.. ولكن من أخدع؟ إنه يقرأ الأفكار.. سيعلم حتمًا أنني أموت خوفًا.. أشرت إليه بيدي وأنا أسأله بصوت مرتجف: "من.. من أنت؟"

ثبّت عينيه في عينيّ، حاولت أن أهرب بنظراتي إلا أنني مهما حاولت لم تكن محاولاتي لتثمر بجدوى.. كنت كالمسحور لا أستطيع أن أشيح بنظري.. بصوت عميق قادم من الجحيم تكلم أخيرًا: "هل تريد حقًا أن تعرف من أنا؟ أنا الخالد المبجل.. أنا المحلق في سماء الجحيم.. أنا الذي كان الجحيم لي حياة وليس عقابًا.. ربما أكون جنيًا لكنني بالتأكيد أسوأ شيء سيحدث لك.. ستندم أشد الندم على مجيئي.. ليس بسبب الدجال ولا بسبب صبيه.. بل بسبب تمنيك حضوري، حضرت ولن أرحل قبل أن أنول مبتغاي.. أتعلم ما هو؟! أن تستعر نار الجحيم بازدياد.. أنصحك الآن ألا تخاف.. فإن الخوف وقود حياتي".

أنهى كلماته بنظرة نارية شعرت فيها أن جسدي وضع في أتون من حمم الجحيم.. هل زادت درجة الحرارة أم أن حميّ غامضة أصابتني.. لم تطل مدة تفكيري بسبب الأمر الذي يحدث أمامي الآن، والذي لن أنساه ما حييت.. كان جسده يرتجف بشدة.. يتضخم بشدة ويستطيل.. الخيوط تتقطع بصوت مكتوم ومكان التحام الجروح يبدو كالحروق.. اللحم البشري يذوب.. كأن نار الجحيم بأكملها تصب صبًا داخل الصبي.. الجسد يكبر بشدة وهو لا يتحمل فيذوب.. المصباح الصغير انفجر بدوي مكتوم فأشحت بوجهي ووضعت يدي عليه كي لا تصيبني شظايا المصباح.. عندما نظرت وجدت أمامي جسدًا استطال حتى بلغ السماء علوًا.. أسود اللون قبيحًا.. يداه طويلتان حتى إنهما تصلان لما بعد ركبتيه.. يشبه التكوين البشري من بعيد جدًا.. حاولت أن أنظر إلى وجهه.. يملك أذنين طويلتين بارزتين وشعرًا طويلاً خفيفًا جدًا.. عيناه سوداوتان بالكامل بلا حدقات.. وشفتاه رفيعتان جدًا.. أسنانه مهشمة مكسرة غير مستوية ووجهه به بعض الانبعاجات.. ابتسم وأنا أنظر إلى أعلى وأتأمل ملامحه الفظة.. أصابني الهلع فحاولت التراجع.. نظرت بطرف عيني إلى الباب.. المهرب الوحيد من هذا الجحيم.. نظرت إليه فوجدت ابتسامته تتسع قبل أن يشير لي بيده ذات الأظافر الطويلة المتسخة إلى الباب.. نظرت لأجد أن الحائط مستمر.. لا أبواب ولا شبابيك.. تحولت الشقة لسجن إسمنتي بلا أي مخرج أو مهرب.. لابد أن أهرب.. أفرّ.. لابد أن هناك مخرجًا ما.. يجب

أن أخرج من سيطرته عليّ أولاً، ولكن كيف؟ بصوت خافت أخذت أتمتم: "انصرف، لا تؤذيني ولا أؤذيك".

سمعت ضحكة محشرجة عميقة رجت المنزل بأكمله، قبل أن يتحول الصوت للجدية التامة وهو يسألني: "كيف ستؤذيني؟"

لم أعرف ما هو الرد المناسب الذي أخبره به!! حقًا لم أعرف.. الحقيقة أنني رددت تلك الكلمات بتعود كما تعودنا أن نسمعها من أمهاتنا.. سمعت صوته مرة أخرى: "يا تابعي الملعون.. خلاص لعنتك عندي ولكن يجب أن تعلم أولاً أنه لا شيء دون مقابل.. لا تملك خيار الرفض أو القبول.. ليس أمامك سوي طريق ذهاب بلا عودة وعودتك ملك يدي.. إذا أردت عودتك ستعود وإذا لم أرد.."

لم يتمّ كلماته قبل أن تشتعل النيران في الجدران، والجدران ذاتها أخذت تقترب مني بشدة.. درجة الحرارة مرتفعة للغاية.. حرارة النيران تلفحني قبل أن تصل لي بأمتار.. لا أعرف ما العمل.. ليس بيدي حل سوي القبول.. لم يتحمل جسدي فانهار أرضًا لأسقط على ركبتيّ وأنا أشير بيدي وأصرخ بصوت عالٍ: "حسنًا.. سأقبل.. سأقبل".

توقفت الجدران عن الحركة وعاد كل شيء إلى طبيعته مرة أخرى وازدادت نظراته حدة وهو يأمرني بصوت صارم للغاية: "اركع لسيدك أيها الملعون".. لم أتردد كثيرًا في الحقيقة.. ركعت أمامه بسرعة.. اقترب مني بخطي واسعة ومدّ أحد أصابعه ومسني بها.. ربااااااااااااه..

صداع قاتل أصابني.. شعور غريب.. دوار حاد أصابني وغثيان.. شعرت بالعرق البارد يغمر جسدي بأكمله.. المشكلة كانت شعوري أن هناك شيئًا ما يُسحب من روحي.. غصة في حلقي تزداد وجسدي يقاوم.. أحاول التمسك بما يُسحب مني.. لا فائدة.. هو أقوى مني.. عندما انتهي ارتمى جسدي على الأرض وأنا أنشج بشدة.. جلست على الأرض وأنا أضغط بيديّ على صدري الذي يؤلمني بشدة.. سمعت صوته يتردد مرة أخرى: "مرضك ذهب بلا رجعة.. تابعي يجب أن يكون معافى.. ولتعلم أن مرضك بداخلي وأتحكم به وبك.. سيكون عقابك!!".. لم أفهم معنى كلماته بسرعة، إلا أنني بدأت أستوعبها ببطء.. هل يعني أنني.. أنني تعافيت!! نظرت له فأكد شكوكي بابتسامة صفراء.. لم أعد آكلاً للحوم البشر.. لم تعد شهوتي تتحكم بي.. لم أعد مريضًا بالكورو اللعين.. لن أموت.. لن أموت.. قهقهت بفرح غامر وأنا أعرف أن هذا الفصل قد أُغلق تمامًا ولا داعٍ للتفكير فيه مرة أخرى.. لم أكن أعلم وقتها أن الفصل القادم من حياتي أشد إيلامًا من المرض ومن الموت نفسه.. لم أكن أعرف هذا وأنا أبدأ حياتي بمسمى جديد.. الممسوس.

(١٦)

مرّ يوم كامل وأنا طريح الفراش من أثر الحمى التي صاحبت خروج المرض من جسدي.. كان جسدي يرتجف بشدة وكنت لا أستطيع أن أحافظ على وعيي لفترة كبيرة.. كنت أستيقظ للحظات أتأمل الغرفة من حولي وأتذكر ما حدث، فأبتسم وأفقد وعيي مرة أخرى.. مرات كانت الغرفة خالية ومظلمة.. مرات أخرى كانت مضاءة.. مرات قليلة جدًا كان يقف في الغرفة يراقبني بهيئته الأولى.. هيئة الطفل المخيط الذي تهتكت شفتاه وأجفانه من لقاؤنا الأول.. أخيرًا أفقت من تلك الحمى.. جسدي بأكمله غارق في العرق.. تحركت إلا أن آلامًا رهيبة أصابت جسدي للحظات.. جلست على طرف الفراش ألتقط أنفاسي وأنتظر الألم أن يزول.. دقائق مرت والألم يزول تدريجيًا.. قمت وأنا أشعر بدوار يهاجمني ولكنه كان أخفّ من أي دوار أصابني من قبل.. خصوصًا وأنه لم يصحبه الغثيان أو الصداع.. استندت بيدي على الحائط وفتحت باب الغرفة وتسمرت مكاني وأنا لا أقوى على الحراك بسبب الصدمة التي أصابتني.. في الحقيقة رجفة قوية سرت في جسدي وكادت تتسبب في فقداني لاتزاني إلا أنني تماسكت.. كان يقف أمامي مستندًا على الحائط في نفس الموقع الذي تقابلنا فيه أول مرة.. هذه المرة يقف مستكينًا بلا بركة دماء أو حركات مفاجئة.. لم يكن هو بالطبع الذي صدمني وأصابني بتلك الحالة من الذهول، بل كانت الأربع كلمات المكتوبة على الحائط.. لوهلة لم تعد اللغة غريبة.. لم

أفهم معناها بعد ولكنني شعرت وأنا أنظر إليها أن تلك اللغة مألوفة بالنسبة لي.. أتعرف حين ترى كلمات لغة أجنبية لأول مرة.. ستشعر أنك تتأمل طلسمًا بلا حل.. فتبدأ في دروس اللغة وتدرس في البداية الحروف وطريقة نطقها.. وقتها عندما تنظر لنفس اللغة ستشعر أنها مألوفة.. ربما عرفت نطقها ولكنك لم تعرف معناها بعد.. كان هذا هو شعوري في تلك اللحظة.. أنطقها لأشعر بها مفهومة وأعرف يقينًا أنني أنطقها بطريقة صحيحة، ولكن معناها بعيد عني.. متوارٍ في ركن بعيد من عقلي يأبى أن يظهر الآن.

تلاقت أعيننا واتسعت ابتسامة غامضة على وجهي.. استندت بيدي على الحائط واتجهت إلى الحمام.. غسلت وجهي واستحممت وخرجت إلى الصالة لأجده لا يزال يقف في نفس المكان، ولا تزال ابتسامته الصفراء على وجهه.. دخلت إلى غرفتي وأغلقت الباب خلفي وفتحت الضوء لأفاجأ به يقف أمامي.. هذه المرة لم تكن الابتسامة على وجهه.. كانت ملامح الشر بادية على وجهه.. الصدمة جعلتني أتراجع للخلف حتى اصطدمت بالباب بعنف.. لا تزال ملامح الشر متجلية على قسماته الشريرة.. سواد عينيه يختلط بحمرة مخيفة كأن جمرتين من الجحيم تحاولان اختراق عينيه.. يمد يديه إليّ ببطء وهو يتأملني بشرّ.. التصقت بالحائط أكثر وأنا أرتجف وأراقب يداه التي تقترب مني.. أمسك جانبي رأسي بيديه وضغط عليها بشدة.. أحسست أن رأسي يكاد ينفجر.. حاولت أن أخرج من قبضته إلا أنها كانت أقوى مما أتخيل.. عيناه لا تزال خليطًا بين الأسود ولون الجحيم.. لا أعلم ما الشيء

الخاطئ الذي فعلته لكي أُغضبه بهذا الشكل.. كان الرعب يملأني والهلع بدأ يسيطر علي.. صوته العميق الحاد ذو الحشرجة يتردد صداه داخل عقلي: أيا تابعي الملعون.. لا تملك إلا طاعتي.. طريقك محتوم مرسوم بلا رجعة.. مهمات ثلاث تنفذها فتصبح حرًا طليقًا، وإلا.."

لم يتمّ جملته قبل أن أشعر بشيء خبيث يدخل جسدي.. شيء غامض لم أرتح له.. شهقت بعنف وإتسعت عيناي من الألم.. كان جسدي يلتصق بالحائط وهو يرفعني عن الأرض بقوة.. أخذ جسدي يرتجف بعنف.. في الحقيقة كان جسدي يرتج.. ارتطامي بالحائط لم يكن مؤلمًا قدر الألم الذي يسببه لي هذا اللعين.. انتهي وترك جسدي يهوي أرضًا.. أخذ جسدي يرتجف بشدة.. العرق البارد يغمرني والدوار والغثيان أقوى من كل مرة.. صداع هائل يدق رأسي.. الآلام مضاعفة.. الأعراض مضاعفة، وبالطبع سرعة تفشي المرض في جسدي مضاعفة.. سعلت بقوة ولاحظت قطرات من الدم تخرج من فمي.. مددت يدي إلى فمي بوهن ومسحته بها لأفاجأ أن وجهي مليء بالدماء.. مددت يدي المرتجفة الواهنة إلى أنفي.. أنفي ينزف بغزارة وفمي أيضًا.. فتحات أذني كذلك.. في الواقع إن جميع فتحات جسدي تنزف بغزارة.. أطرافي أيضًا بدأت تتحرك بعنف.. حركات فجائية لا إرادية.. جسدي بأكمله يتحرك كأن لم يكن لي سيطرة عليه.. بدأ الوضع يسوء والأمور تتغير للأسوأ.. دوائر سوداء باهتة بدأت تظهر في مجال نظري وهي تتسع.. كنت أعلم يقينًا أنه أعاد إليّ مرضي مرة أخرى.. الذي لم أكن أعلمه أنه أعاد لي مرضي مضاعفًا.. شعرت به يقترب مني مرة أخرى ويمسك بي من جانبي رأسي

ويرفعني عن الأرض.. شعرت بكل الآلام والدوار تنحسر.. بدأت أعود للوعي مرة أخرى.. بدأت أعود لأفيق وأستوعب مجريات الأمور مرة أخرى.. عدت مرة أخرى بلا ألم أو مرض.. ابتعد عني ووقفت بلا أي حركات فجائية وبلا نزيف إلا من الدم الذي كان يسيل على جسدي.. ملابسي بأكملها مصبوغة بالدماء.. سمعت صوته يتردد في ثنيات عقلي مرة أخرى: "علمتَ عقابي، وكما أخبرتك ليس لك الخيار.. لا تملك إلا أن تطيع سيدك.. اذهب لتنظف نفسك، فستنطلق لمهمتك الأولى قريبًا".

دخلت مرة أخرى إلى الحمام وغيرت ملابسي بأكملها واستحممت ونظفت جسدي وأنا أفكر في مهمتي الأولى.. في الحقيقة لم أعد أفكر في الذي يحدث لأنه أصبح أمرًا حتميًا.. لا أملك ذرة تغيير فيه.. خرجت من الحمام إلى الصالة.. يقف وحيدًا في ركنه المفضل.. لم يتغير شيء إلا الكلمات المكتوبة على الحائط.. أصبحت أفهمها الآن وأعي معناها جيدًا.. كلمات تحمل معنى عميق غير مجري حياتي:

"هل تعتقد أن في فضولك متعة.. أم إن هروبك خروج عن المكتوب!!"

(١٧)

في صباح اليوم التالي.. استيقظت من النوم وخرجت للصالة فلم أجده.. تعجبت ولم أدرِ أغيابه من حسن حظي أم من سوئه، أم هي مجرد مصادفة.. غسلت وجهي وخرجت للصالة فلم أجده ولكني شعرت بوجوده.. يبدو أنه ينتظرني في الغرفة.. فتحت بابها في حذر وأنا أتلفت برأسي بحثًا عنه.. لم يكن موجودًا.. الغرفة خالية تمامًا.. دخلت وأغلقت الباب خلفي.. هناك شيء ما خاطئ.. إنها تشبه غرفتي كثيرًا.. هززت رأسي في عنف وأنا أحاول اكتشاف الخطأ.. كنت متأكدًا من أن هناك شيء ما تغير.. ظهر لي في الركن البعيد وهو يبتسم.. شعرت بأن المكان يتغير من حولي بالتدريج.. ملامحه تتغير ببطء.. هذه ليست غرفتي.. الأمور تتضح ببطء لي.. لا أدري أين أنا.. انتظر.. أنا أعرف تلك الغرفة.. انتهي التغيير البطيء لملامحها واتضحت لي تمامًا.. أنا أتذكر هذا المكان.. كنت هنا من قبل.. تلك هي الغرفة التي قابلت بها الطفل المشرّد.. الموجودة بتلك العمارة المهجورة المجاورة لي.. تأملت المكان حولي.. نفس الملامح لم تتغير.. مروحة السقف الصدئة المعلقة إلى السقف.. الفراش المتهالك الذي يتوسطه بقعة بنية اللون كبيرة لا زلت لا أعرف كنهها.. الكرسي صاحب الثلاث أقدام الذي يستند للحائط في عجز.. الدولاب الضخم الذي لا يزال مفتوحًا.. ليس هناك أي تغيير إلا شيئين لاحظتهما الآن.. حروف غريبة ورموز أغرب نُقشت على حوائط الغرفة بدماءٍ جافة.. الحوائط مليئة بتلك الرموز والنقوش.. وهو يقف بجوار الفراش المتهالك يتأملني وهو يبتسم.. يقف بجوار شرفة أول مرة

ألاحظ وجودها.. تُطل على الشارع.. ابتسامته التي بدأت تستفزني وتثير أعصابي.. صوته المتحشرج الذي يصدر من حنجرة مذبوحة يأمرني: "فلتستعد أيها الملعون.. مهمات ثلاث هذه أولها.. تفاصيلها ستعرفها ولن تملك أمرك.. تتمها تعود.. لن تتمها لن تعود.. سيدك منحك مزية جديدة.. عبر الزمان ستسافر وبتغيير الزمان ستعود.. فلتذهب أيها الملعون ولتعد لي منتصرًا وإلا.."

كنت أعرف عاقبة الفشل.. لم أعرف كيف سأسافر عبر الزمان ولا كيف سأعود.. لم أعرف أين سأذهب ولا ماذا سأفعل.. لم أفهم أي شيء من طلاسمه المبهمة.. سأترك له نفسي وليفعل ما يشاء، فلقد مللت.. هي ثلاث مهمات أنال بعدها حريتي منه ومن المرض اللعين ومن كل الأشياء التي تسبب لي آلامًا نفسية أو جسدية.. أغمضت عينيّ وتوقعت أن يتم الانتقال بهدوء، ولكن هيهات.. ليس كل ما يتمناه المرء يدركه.. أتذكر الآن عملية الانتقال وهي تتم.. هي أصعب شيء واجهته في حياتي.. أتدري حين تُقطع إلى أجزاء صغيرة وتُفصل عظامك عن بعضها ثم يعاد تجميعك مرة أخرى؟ هذا هو شعوري.. شعرت أن هناك اثنين من العمالقة كلاً منهما يجذبني من يد وقدم.. جسدي يكاد ينفصل بعنف.. أشعر أن أطرافي تنفصل عني وتطير بعيدًا.. عظامي تتكسر في عنف ويكاد قلبي يتوقف عن العمل من فرط الألم.. عيناي تكادان تنفجران ولا أشعر بأذنيّ.. شعور مؤلم للغاية.. إنتهي كل شيء بغتة كما بدأ بغتة.. فتحت عيني لأجد أنني أقف في دار ريفية قديمة مهدمة.. أفكار كثيرة تُبث إلى عقلي.. أعلم الآن أنني طفل عمره خمسة عشر عامًا.. أنظر لجسدي فأجده كما هو.. كما اعتدت أن أعرفه..

أقف أمام غرفة مغلقة ويغطي جزء كبير من بابها مرآة قديمة بدأ يصفر لونها.. أطرافها تحولت بالفعل للون النحاسي.. أتأمل انعكاسي فيها.. أتأمل ملامح الطفل الذي يتأملني منها.. هنا بدأت أفهم قليلاً الذي يحدث.. سيراني الناس بهيئة الطفل التي اعتادوا رؤيتها أما أنا فسأري نفسي بحقيقتي.. كنت أعلم الآن أنني أحتمي بجسد الطفل الذي أراه.. لم أكن أعلم ما هي مهمتي، أو ما الذي أفعله هنا في ذلك المكان المظلم الذي يبدو أنه مهجور من تلك الدار.. كنت لا أعلم إلا أمرًا واحدًا.. يجب عليّ أن أفتح هذا الباب.. فتحته ببطء ومددت رأسي إلى داخل الغرفة المظلمة لأرى ما الذي بالداخل.. الغرفة مظلمة تمامًا ولا أرى شيئًا.. لم أجد ما يمنعني من فتحه بأكمله.. بمجرد فتحه شعرت براحة نفسية تغمرني.. لحظات مرت ولا شيء يحدث، لم أعلم ما هي الخطوة التي عليّ أن أفعلها الآن.. وقفت متسمرًا بلا حراك للحظات قليلة جدًا.. صرخة مريعة شقت السكون المحيط بالمكان بأكمله.. صرخة وحش يحتضر أو صرخة أي شيء غير آدمي.. لا يمكن لتلك الصرخة أن تكون آدمية على الإطلاق.. انتفض جسدي بشدة وارتجفت وأنا أشعر برغبة عارمة في البكاء.. الصرخة لا تزال مستمرة.. أتلفت حولي في الظلام محاولاً اكتشاف أي شيء من المكان المحيط بي.. ظلام دامس يحيط بالمكان بأكمله.. كوة صغيرة أنارت في نهاية نفق بدأت تظهر ملامحه التي سترها الظلام.. أنا في قبو تلك الدار الريفية.. رجل ضخم الجثة عريض المنكبين يرتدي جلبابًا ريفيًا وتبدو عليه علامات الهمّ والشقاء يندفع جريًا باتجاهي في ذلك الممر.. عرفت أنه أبي أو بالأدق والد ذلك الطفل.. يجري وتتبدل ملامح وجهه حين يلمح

الباب المفتوح لترتسم عليه علامات الهلع والذعر.. سيدة نحيفة تجري خلفه وبمجرد أن ترى الباب المفتوح تقف للحظة والدهشة ترتسم على ملامحها، تسقط على ركبتها للحظات قليلة ثم تبدأ في لطم وجهها بعنف، وخلفهما طفلة صغيرة شعرها بني اللون وبعينين بريئتين عسليتين تتأمل الموقف، وعلى وجهها علامات عدم الفهم.. عرفت فيما بعد أنهما أمي وأختي الصغيرة.. تجاوزني الرجل في عدوه، وصل للباب وأغلقه بعنف فتوقفت الصرخة فورًا.. وقف يتنفس بصعوبة وهو ينظر لي، قبل أن يجذبني من يدي ويسير بخطوات واسعة متجهًا للمرأة التي لا تزال مستمرة في اللطم، ليجذبها من يدها بعنف ثم ينظر للطفلة التي تجري من أمامه برعب، ويمشي وهو يجرنا حتى يصل للباب ويغلقه خلفه.. تناوله المرأة قفلاً ضخمًا ليغلقه به، لكنه ينظر له بحسرة وهو يقول: "لم يعد منه فائدة الآن، فأبواب الجحيم فُتحت ونارها ستلتهم الجميع".

أنهى كلماته ونظر لي وعيناه تدمعان.. هل تتخيل منظر عملاق صعيدي أسمر ضخم الجثة وكثيف الشارب يبكي؟! هذا أحد الأشياء التي لن أنساها طوال حياتي.. نظر لي وقال بصوت متهدج: "أتدري ماذا فعلت؟!"

هززت رأسي بتردد بأنني لا أعرف ما الذي فعلت، قبل أن يستكمل كلماته: "أنت حكمت علينا بالموت وبأسوأ طريقة ممكنة.. ستنتهي حيواتنا بين مخالب رسول الجحيم".

(١٨)

هدأ الوضع قليلاً بعد دقائق، وجلس الجميع حول الأب الذي تأكد أن القرية بأكملها سمعت الصرخة.. اضطر أبي أن يقول لهم أنها صرخة الطفلة التي أصيبت بتسمم.. نظر لي الأب للحظات والدمع يترقرق في عينيه مرة أخرى، وهو يقص علينا قصة تلك الغرفة المغلقة:

"بدأ الأمر منذ أيام الاحتلال الإنجليزي.. أي ما يقرب من خمسين عامًا.. تلك الدار كانت ملكًا لجدك رحمه الله.. كان جدك قائدًا لإحدى فرق المقاومة الصغيرة هنا في بلدتنا.. لم تكن تلك الفرقة قد تجمعت إلا لسبب واحد، وهو تكدير الجو على الاحتلال الإنجليزي.. كانت عملياتهم كلها صغيرة ولا تسبب خسائر فادحة، إلا أنهم كانوا بمثابة صداع يطرق رأس الجزء الموجود من الجيش الإنجليزي.. أحد أهل القرية الخونة – لا سامحه الله – أبلغ عنهم.. تم القبض عليهم هنا في هذا البيت.. كنت وجدتك وإخوتك في مكان آخر.. أثناء الاجتماعات المغلقة والتحضير للعمليات لم يكن مسموحًا لنا بالبقاء هنا.. تمّ القبض عليهم، وخرجوا من البيت موضوعًا على رأس كل منهم قطعة قماشية سوداء تحجبه عن الناس وتحجب عنه الناس.. تم إعدامهم في الحال أمام أهل القرية بالكامل، واتخذ الضابط الإنجليزي الذي ألقى القبض عليهم هذا البيت مقرًا له.. ربما أعجبه البيت وربما كيدًا في أهل القرية الصغيرة.. مرت الأيام وفي يوم مشؤوم عرفنا أمرًا بالغ الأهمية..

أن الفرقة التي تتكون من سبعة أشخاص لا يزالون أحياء بالداخل، وأن من أعدم هم سبعة أشخاص آخرون من قرى مجاورة.. صرخات قليلة متقطعة بدأت تُسمع من قبو المنزل.. صرخات مكتومة تظهر للحظات ثم تختفي مرة أخرى.. لم يجرؤ أحد من أهل القرية على اقتحام المنزل ولا حتى لتحريرهم، برغم سماعهم آنات العذاب في أكثر من مناسبة.. لم تكن تُسمع إلا ليلاً.. كنت أنا وقتها في مثل عمرك تمامًا.. كونت وأصدقائي فرقة صغيرة من المقاومة.. كنا أكثر من عشرين شابًا تتراوح أعمارنا بين الرابعة عشرة والحادية والعشرين.. عشرين شابًا في ريعان شبابهم يقودون معركة شبه محسومة.. اتفقنا على موعد.. في الليل مشينا في خفة حتى اقتربنا من المنزل.. توقفنا بجواره وتسلل خمسة منا بخناجر وسكاكين لقتل الحارسين اللذين يقفان في خدمة البيت.. لم نكن نريد أن نثير أي ضوضاء حتى لا يُفضح أمرنا.. بالفعل تخلصنا منهما وبدّل اثنان منا ملابسهما معهما حتى لا يثيروا الشك.. تسللنا لباب المنزل وعندما أصبحنا بالداخل أشعل جزء منا المشاعل حتى نرى.. بمجرد أن أُنيرت المشاعل حتى وجدنا عشرات الجنود يقفون في الظلام مرتصين بجوار بعضهم البعض.. كيف علموا؟! هل بيننا خائن؟! لحظات مرت وبدأت الحرب المصغرة.. الحرب التي انتهت بالقضاء على الجيش الإنجليزي الصغير في مقابل خمسة عشر شابًا منا.. لم يعد من جيشنا سوى خمسة أفراد.. اثنان في الخارج وثلاثة بالداخل.. كنت أنا أحد هؤلاء الثلاثة.. وكان الاثنان الآخران أيضًا أبناء لرجال من فرقة المقاومة المفقودة.. وقفنا

الآن حائرين لا نعرف ماذا نفعل.. المنزل يبدو فارغًا.. تبادلنا النظرات وكدنا نخرج لنستشير زميلينا الواقفين بالخارج إلا أن صرخة مكتومة أرشدتنا للطريق.. أخذنا نبحث عن مصدر الصرخة حتى وجدنا هذا الباب الذي تراه.. فتحناه ونزلنا على السلم حتى وجدنا السلم ينتهي بغرفة واحدة مغلقة.. تعاونا حتى كسرنا الباب ودخلنا إلى الغرفة.. للحظة هُيء لنا أن شبحًا أسود اللون باهته قد أسرع ليختفي داخل جسد الضابط، الذي انتفض جسده بعنف ثم استدار لنا بوجهه الأحمر وملامحه الأعجمية المزينة بشعر أشقر يحيط رأسه كتاج من الذهب.. نظرة هلع رقصت في عينه للحظات.. انقضضنا عليه وأخذ هو يدافع عن نفسه بمشرط جراحي.. أصابني وأصاب آخر إلا أن الكثرة تغلب الشجاعة.. تمكنا من الإمساك به وإفقاده الوعي.. بعدها بدأنا نتلفت حولنا في هلع، فما كنا نراه بداخل تلك الغرفة أبشع ألف مرة مما كان خيال أي منا قادرًا أن يُصوّر.. كانت هنالك صلبان خشبية ضخمة وقد صُلب بها شخصان.. أحدهما صُلب بالوضع الطبيعي المعروف بينما الشخص الآخر صُلب مقلوبًا وقد ازرقّ رأسه بسبب تدفق الدماء في هذا الوضع الغريب.. كان كلاهما ميتًا وتبدو عليه أبشع علامات التعذيب.. في الركن المظلم أحدهم مربوط إلى الحائط وقد بُقر بطنه.. يبدو أنه جوّعه بشدة قبل أن يموت، ثم أجبره على أكل جزء من أمعائه.. هناك أشلاء مقطعة ومرمية في جوانب الغرفة التي امتلأت حوائطها بالدماء.. جسد مسجى على منضدة صغيرة تتوسط الغرفة.. تلك التي كان الإنجليزي منكبًا عليها قبل أن ندخل.. جسد

منزوع العينين ويبدو فراغ العينين دمويًا، إلا أنه لم يكن خاليًا.. موضوع بفراغ العينين مسحوق أحمر قانٍ جعله اختلاطه مع الدماء كالعجين.. والجسد نفسه مقطوع من مواضع عدة.. هناك بضع مناطق يبدو أنها كانت جروحًا وكُويت بالنار.. ماذا كان يفعل بهم هذا الملعون؟ تمالكنا أعصابنا وأخذ أحدنا يتقيأ بعنف، بينما تعاونت أنا والآخر على حلّ رباط الجسدين المصلوبين.. أحدهما ندت عنه تنهيدة ألم ونحن نُسجيه على الأرض وفتح عينيه ببطء ونظر لنا وابتسم، ثم أسلم الروح لبارئه.. كأنما اطمأن إلى أنه بين يدين ستعرفان كيف تُكرمانه بعد موته بالدفنة اللائقة.. بحثت عن أبي كالمسعور بين الأجساد الأربعة الموجودة فلم أجده، ولم يجد زميلي أباه، بينما ثالثنا وجد أن أباه هو الشخص الذي يتناول أمعاءه في ركن الغرفة البعيد.. حملنا الأربعة أجساد وجمعنا الأشلاء وخرجنا لنجد زميلينا اللذين انتحلا شخصية الحراس مذبوحين وملقيين على قارعة الطريق.. تعاونا حتى نقلنا كل الجثث، وجمعنا أهل البلدة وعدنا لندفن تلك الجثث، وذهبنا للضابط الذي بدأ يسترد الوعي ويشعر بالهلع، وهو يبصر أمامه في تلك الغرفة الضيقة كل رجال وشباب البلدة ينظرون له بأعين تنطق كفرًا وعنفًا.. لم يحتج للكثير من الوقت ليفهم نهايته الوشيكة.. حاول التحرك إلا أنه اكتشف أنه مصلوب على أحد صلبانه الخشبية ويداه وقدماه مقيدتان بعنف إليه بسيور جلدية لم نرَ مثلها من قبل، وإن كنا وجدناها مرتبطة بالصلبان.. أخيرًا بعد عدة محاولات همد جسده للحظات قبل أن يبتسم بسعادة وهو يقول بعربية سليمة

تمامًا، على عكس عربية الضابط الركيكة: "باب عودة مفتوح وسأعود من أجل الانتقام".. لم يفهم أحد من الحضور تلك الجملة الغريبة قبل أن يبدأ جسده في التلوي بعنف.. شهق الجميع وتراجعوا خطوات قليلة للخلف وهم يرون دخانًا أسود كالح اللون يخرج من جميع فتحات جسده، قبل أن يسيح لحمه ويحترق عن آخره، وإن لم يتحول لفحم.. تحول لجثة مسلوخة مهترئة اللحم مصلوبة.. حاول الكثيرون تحريره إلا أننا لم نستطع، فاتفقنا على ترك الجثة هنا.. بينما نحن نخرج من الغرفة تحركت الجثة الذائبة لتتكلم من فم محروق لتقول: "بابكم باب الخلاص.. إذا أُغلق سينتهي الأمر وإذا فُتح الباب ستُسمع صرخة الرسول لتبدأ اللعبة".. سكنت الجثة ونظرنا لبعضنا البعض في عدم تصديق، ولكننا قررنا إغلاق هذا الباب للأبد وإلا أصابتنا لعنة رسول الجحيم، حتى أتيت أنت وفتحت الباب لتبدأ اللعبة على حد قوله".

نظرت له في عدم تصديق بعد أن أنهى حكايته، وعلمت ماهية الشيء الذي اختفى داخل جسد الضابط.. أحد أتباع الجن، والذي يريده أن يتحرر، ولكن كيف أحرره؟ إذا فتحت الباب سيسمع الجميع صرخته الشنيعة.. كيف أدخل الغرفة لأحرره بدون أن أفتح الباب.. سؤال أخذ يكبر في عقلي حتى احتلّ كامل مساحة تفكيري، قبل أن أسقط ضحية لسلطان النوم.

(١٩)

في الصباح استيقظت على لغط أصوات كثيرة بداخل الدار.. اعتدلت في مضجعي وأرهفت السمع فلم أسمع سوى بضع جمل تتطاير.

"كما فعلها الأبناء يفعلها الأحفاد".."أنت تعرف أنه لا مجال لإغلاق اللعنة سوى هذا".. "وما المانع من التضحية بالثلاثة قربانًا لعودة هدوء القرية؟".. "ابني أول المتطوعين بالنزول".. "ابني أيضًا سينزل".. "لم يعد ينقصهم سوى ابنك يا عم منصور".. "لا تراجع، فالليلة هي المنشودة".

سمعت أبي يودع ضيوفه قبل أن يغلق الباب ويدخل إلى غرفتي.. جلس بجواري على الفراش ولم يتحدث.. دقائق مرت وهو يتأملني.. ملامح الهمّ والحزن جلية على وجهه.. بادرته بالسؤال: "ما الأمر يا أبي ومن هؤلاء الضيوف؟"

"هؤلاء يا بني هما الشخصان اللذان كانا معي في القبو يومها.. الآن أنت حكمت على نفسك وعلينا أن تنزل لباب القبو لتُحرر تلك الجثة وتحرقها كي نتخلص من تلك اللعنة.. اليوم يطابق مرور خمسين عامًا على يوم نزولنا للقبو.. ستنزل أنت وابنا الشخصين الآخرين.. أحمد ابن بهاء المنوفي وعلاء ابن ماهر الغبراويلي.. ستنزلون لتحاولوا فك تلك السيور التي عجز عن فكها الجميع، فإن لم تستطيعوا فلتحرقوها مصلوبة كما هي.. يجب أن تخلصونا من اللعنة.. وإلا ستكون نهايتنا

ونهاية عالمنا على أقل تقدير.. هذا أمر لا نقاش فيه.. لتستعد كي تنزل في المساء وإلا قضى علينا أهل القرية".

تركني وخرج، وعرفت وقتها مهمتي التي بُعثت إليها.. يجب أن أُحرر ذلك الشيء مهما كان الثمن، وإلا لن أعود، وإذا عدت سأقع تحت طائلة المرض وسأموت.. في كلا الحالتين ميت، إلا إذا نجحت في تحرير الشيء.. لا بديل عن ذلك.

بعد منتصف الليل بلحظات سمعت صوت طرقات عنيفة على الباب.. فتح أبي بيد مرتعشة وإن حاول إخفاء ارتعاشها.. فتح الباب ليدخل منه ثلاثة رجال أشداء معهما شابان صغيران.. توقعت أن هؤلاء هم أحمد وعلاء، والثلاثة رجال هم بهاء وماهر، ولكن من هو ذلك الشخص الثالث؟ كهل عجوز ذو لحية بيضاء وابتسامة تنير وجهه.. عينان خضراوتان تضفيان طيبة على ملامحه.. لم أعرفه وإن كنت أعرف أن الموعد قد حان.. أحد الشابين كان يبكي بعنف بينما الآخر قد ظهر عليه اعتداده بنفسه من وقفته، فقد وقف مفرود الظهر نافر الصدر ويرفع رأسه عاليًا.. لم يتحدثوا كثيرًا، وإن وضعوا في يد كل منا مشعلاً وأوقدوا فيه النيران ودفعونا داخل القبو، وبمجرد أن نزلنا على السلّم حتى سمعنا الباب يُغلق بعنف ثم يليه صوت القفل المعدني الكبير يُغلق.. ما هذا؟! هل تخلوا عنا؟! أم أن غلقه مجرد إجراء احترازي حتى ننتهي من مهمتنا.. جرى أحمد الذي كان أصغرنا في السن إلى الباب وأخذ يخمشه بأظافره وهو يبكي بعنف شديد.. نهره علاء بشدة وهو يعود ليجذبه من يده ليسير معنا إلى تلك الغرفة.. النيران

تراقص لتضفي ضوءًا أحمر على الممر الضيق.. وصلنا للغرفة ونظرنا لبعضنا البعض في هلع.. تقدم علاء من الغرفة وفتح بابها ببطء شديد.. تكرر الأمر مرة أخرى.. ما إن فُتح بأكمله حتى اندلعت الصرخة الشنيعة.. دفعني ودفع أحمد بداخل الغرفة وأغلق بابها خلفنا.. التفتُّ للوراء فلم أجده.. لقد أغلق علينا الباب من الخارج.. توقف صوت الصرخة عندما أُغلق الباب.. طرقت عليه بقبضتي بعنف فسمعت صوته من بين دموعه يتمتم بكلمات لم أدرِ كنهها.. عرفت يقينًا أنه لن يسمح لنا بالخروج.. تحسست جيبي بهدوء ونظرت لأحمد الذي لا يزال يجهش بالبكاء.. نظرت على ضوء اللهب المتراقص إلى الجثة المصلوبة.. لا أدري لم لم أشعر برعب منها.. نظر لي أحمد بهلع.. قلت له بصوت هادئ محاولاً طمأنته: "لم يعد غيري أنا وأنت يا صديقي.. عاوني على فك الجثة لننزلها أرضًا ونحرقها".

لم يرد وإنما أومأ إليّ برأسه.. أخرجت من جيبي خنجرًا وجدته تحت وسادتي في الصباح.. علمت من الذي أحضره إليّ لأستخدمه بمجرد أن لمسته.. حاولت فك السير الجلدي الأول الذي يحيط باليد اليسري.. كانت مهمة صعبة جدًا، خصوصًا أن اللحم قد ذاب ليلتصق به.. أخذت أقطع قطعًا من اللحم الذائب لأحرر اليد اليسرى، وبدأت أشعر بالجثة تتحرك بخفوت.. لا أعلم أهي خيالات الظلام أم حقيقة.. أخيرًا حررت اليد اليسرى وجريت لأساعد أحمد المنهمك في محاولة تحرير اليد الأخرى بمشرط جراحي قديم صدئ وجده ملقى أرضًا.. ساعدته حتى حررنا اليدين وفوجئنا بالجثة تميل علينا.. قفز قلبي هلعًا قبل أن أفهم ما يحدث.. لم يعد هناك ما يُجبر الجثة على الصمود على هذا

الوضع، فانحنت بحركة تلقائية بفضل الجاذبية.. جعلت أحمد يمسكها حتى أستطيع أن أحرر القدمين.. لم تأخذا وقتًا كاليدين.. حملنا الجثة ووضعناها أرضًا.. هذه المرة تأكدت أنني لمحت حركة الجثة.. الجثة تتحرك ببطء بحركات معدودة.. يبدو أنها تستعيد نشاطها.. مدّ أحمد يده إلى ما خلفه وأحضر دلوًا من البنزين كان معنا أثناء نزولنا.. سكبه بأكمله على الجثة ومدّ يده لجيبه يبحث عن القداحة.. أخرجها ونظر لي فهززت رأسي له، وقبل أن يُشعلها طار رأسه بعيدًا إلى ركن الغرفة وتدحرج على الأرض، قبل أن ينتفض الجسد الواقف للحظات ويسقط أرضًا، وأنا أنظر للخنجر الموجود في يدي بإعجاب بعد أن أدى مهمته بنجاح.. ابتسمت وأنا أراقب ضحيتي وهو ملقى أرضًا وركعت أمام الجثة وأنا أنتظرها لتتحرك.. تحركت هذه المرة وانتفضت بشدة وانتفض قلبي بين ضلوعي معها.. وقف الشيء وهو يتأمل جروح يديه وقدميه التي سببتها له أثناء فك السيور، قبل أن يقترب مني ويمسك برقبتي ويخنقني وهو يرفعني عاليًا.. بدأ الهواء يقل والدنيا تسود أمام عينيّ.. يبدو أن نهايتي قد حانت.. فجأة وجدت نفسي في الغرفة المهدمة التي انطلقت منها.. تلفت الشيء حوله في حيرة قبل أن تقع عيناه على الجن الذي وقف يراقبنا بابتسامة متسعة.. ما إن لمحه الشيء حتى تركني أسقط أرضًا وانحنى بسرعة راكعًا تحت قدميّ الجن، الذي ربت على رأسه بهدوء وهو ينظر لي ويبتسم، وأنا أمسك رقبتي وأسعل بشدة.. يبدو أنني نجحت في مهمتي الأولى.

(٢٠)

في الأيام القليلة التي تلت نجاح مهمتي الأولى ساد الهدوء.. كان لا يزال يحتفظ بهيئة الطفل الصغير ممزق الجثة.. تابعه لم يظهر بعدها إلا لمامًا.. وعندما كان يظهر كانا يجلسان في مواجهة بعضهما البعض ويقرقران كالقططة بلغة غير مفهومة.. انعزلت في غرفتي تلك الأيام وهاجس غريب يسيطر عليّ.. كان التوتر قد نال مني وبدأ يبدو جليًا عليّ.. كنت أجلس على فراشي بالساعات وأنا أفكر في جملة قالها الأب أثناء مهمتي السابقة.. جملة غيرت من تفكيري ومني أنا شخصيًا بعد عودتي.. أتذكر ملامحه وهو ينطق تلك الجملة.. ردّ فعل زوجته عليها.. انعقاد حاجبيه والخطورة التي ظهرت جلية على وجهه وقتها.. الجزع الذي ظهر على وجه الزوجة.. انطفاء لمعة عين كلاهما للحظات كأنما قد فارقها بريق الحياة: "وإلا ستكون نهايتنا ونهاية عالمنا على أقل تقدير".. ماذا عنى بكلمة أقل تقدير؟ هل هناك أسوأ من انتهاء العالم؟ ما الذي حدث بعد أن رحلت أنا؟ هل أنهى التابع انتقامه؟ تساؤلات كثيرة أخذت تتردد في تفكيري بلا رد مقنع.. الفضول يكاد يقتلني.. أريد أن أعود لأرى ما الذي حدث.. قمت من على الفراش ومشيت حتى الباب بخطوات متثاقلة.. فتحت الباب وأخذت أتلفت حولي لأبحث عنهما برغم معرفتي أن الذي أفعله بلا جدوي.. لو كان موجودًا لقرأ أفكاري بلا مجهود يُذكر.. بحثت في الشقة جيدًا فلم أجد له أو لتابعه أثرًا.. دخلت إلى غرفتي وأنا أنوي العودة بالزمن لأبحث

عن توابع عملي.. جلست على فراشي وأنا مغمض العينين وأخذت أركز على الغرفة التي كنت فيها.. أخذت أعصر ذهني تركيزًا حتى كاد عقلي ينفجر، ولم أشعر بتغير شيء.. فتحت عينيّ في يأس وأنا أفكر في أنه ربما منحني القدرة على السفر عبر الزمن في مهماته فقط.. ما إن فتحت عينيّ حتى راقبت المكان المحيط بي بذهول.. لقد كنت في الغرفة.. لقد نجحت.. نجحت.. راقبت المكان في تركيز.. كنت أريد أن أنتهي من مهمتي لأعود في أسرع وقت ممكن قبل أن يكتشفا غيابي.. لا يزال جسد أحمد ملقى أرضًا والدم لم يجف بعد.. لم يمرّ وقت طويل على رحيلي.. هاهي الرأس ملقاة في ركن الغرفة والصلبان والحوائط مليئة بالدماء.. التفتُّ إلى الباب وأنا أتذكر أن علاء كان يقف خارجه ولم يقوَ على الدخول معنا.. نظرت للباب فوجدته مفتوحًا قليلاً.. خرجت للممر وبحثت بنظري عن علاء.. لا أثر له.. باب الممر الخارجي الذي يُفضي للدار مفتوح بعنف ومفصلاته مخلوعة، ولكن هل هرب علاء؟! مشيت في الممر ببطء قبل أن أشعر بشيء يسقط عليّ من السقف.. انقبض قلبي بشدة من الرعب وأنا أتأمل الدماء التي سقطت عليّ قبل أن أرفع بصري ببطء لأجد علاء مثبتًا على السقف بقوة غير طبيعية.. كان بطنه ملاصقًا له ويداه وقدماه تمتدان بجواره للأسفل بفعل الجاذبية.. نظره كان شاخصًا وهناك خيط من الدماء يسيل من فمه.. كان جسده يرتعد وينتفض بعنف بالغ.. تمالكت أعصابي ومشيت بقدمين يعبث بها الخوف، إلى أن وصلت للباب الذي نُزعت مفصلاته بعنف.. خرجت إلى الصالة التي كنا نجلس فيها وقت أن

حضرت إلى هنا.. أول ما قابلني كان رأس الطفلة الصغيرة وهو ينظر لي ببراءة خالصة، وإن أضيف إليها مسحة من الحزن على ملامحها، خصوصًا وأن رأسها كان منزوعًا من جسدها وملقى أرضًا بأسفل الأريكة.. انحنيت وكدت ألمسه إلا أن صرخة حادة باغتتني.. في الحقيقة لم أكن لأجرؤ على فتح الباب الخارجي لأرى سبب الصراخ.. كنت أعلم يقينًا أن الفجر لم يؤذن بعد لأنني رحلت من هنا تقريبًا في الواحدة بعد منتصف الليل، أي إن الساعة الآن لم تتعدّ الثانية أو الثالثة.. كنت أريد أن أفتح الباب الخارجي لأرى الذي يحدث بالخارج إلا أنني لم أكن أستطيع.. اتجهت إلى الشباك وفتحته بحرص وأنا أسمع صوت الصرخات يعلو بالخارج.. مددت رأسي بالخارج ورأيت مشهدًا لن أنساه طوال عمري.. بيوت محترقة عن آخرها وبيوت لا تزال النار تأكلها.. لا يوجد بيت لا تشتعل فيه النيران.. وجدتهما خارجًا يقاتلان في معركة غير متكافئة.. رجال القرية متكأكئين أمامهما يحاولون التخلص منهما بيأس.. الأشلاء والدماء والرؤوس تملأ المكان بأكمله.. تسمرت للحظات مكاني وأنا أرى أحد شباب القرية الذي لم يتجاوز الثلاثين ربيعًا وهو يعدو وقد تحوّل لكتلة من اللهب.. توقف للحظة وغيّر مساره وأخذ يعدو تجاههما.. تقدم التابع ببطء وتوقف أمام سيده وترك الجسد الملتهب يلتحم به.. المثير للذعر أن الجسد التحم به وتعالت النيران حتى كادت تبلغ السماء، قبل أن تنقشع لأبصر الجسد الذائب قد التصق بجسد التابع الذي حمله معه أينما ذهب، كأنما لم يتغير شيء.. للحظة حوّل التابع مسار بصره فانحيت للداخل.. يبدو أنه لمحني.. لا

أعلم ولكنني للحظات قد شعرت - بل أكاد أجزم - أن أعيننا تلاقت.. لحظات قليلة مرت وأنا منحنٍ أسفل الشباك لا أجسر على النظر خارجه.. تمالكت أعصابي وأجبرت نفسي على النظر خارجًا.. لم أرهما.. كاد قلبي يتوقف هلعًا عندما سمعت صوت الباب الخارجي يُفتح.. أغمضت عينيّ وركزت وأخذت أعصر ذهني لأعود مرة أخرى لعالمي.. لحظات مرت وفتحت عينيّ لأجد نفسي على فراشي.. تنهيدة راحة اندلعت من صدري.. زفرة ارتياح كانت تحمل معها كل القلق الذي انتابني.. حاولت أن أتحرك لأتجه للصالة إلا أنني فوجئت أنني مقيد بالفراش.. حاولت حلّ وثاقي إلا أنني لم أستطع.. حاولت مرة بعد الأخرى حتى وجدت أنني إذا تحركت أكثر سأجرح يديّ.. صوت خافت سمعته من جواري.. تلفتُّ حتى رأيت الشيخ الطاعن السن ذا اللحية والعينين الخضراوتين، الذي كان يرافق الوالدين وولديهما.. كان يقف جواري متواريًا وهو يبتسم لي ليطمئنني.. أشار لي بعلامة السكوت لكي أصمت.. اقترب مني وهو يهمس: "لقد حضرت من أجلك".

إنحني على جسدي ليستكمل همسه في أذني، وما إن بدأ كلماته حتى فُتح باب الغرفة بعنف وظهرا على الباب.. تأملتهما بهلع قبل أن ألتفت بحثًا عن ذلك الشيخ، الذي لم أجده ولم أجد وثاقه أيضًا.. اختفي كأن لم يكن له وجود.

(٢١)

أخذا يتأملان الغرفة في غضب.. اقتربا مني وأمسك التابع يدي بعنف وهو يشير إلى آثار القيود على معصمي.. تأملها وهو يمس يدي بهدوء، ولكنني شعرت كأن نار الجحيم مسّت يدي.. سحبت يدي بسرعة وأنا أنظر له بهلع.. تأمل الغرفة مرة أخرى ولكنه لم يجد أي دليل على وجود شخص آخر.. شعرت بغضبه يزداد قوة.. ضرب بيده على الكومود الصغير الموضوع بجوار الفراش فأحاله رمادًا فور لمسه.. أمسك بي بيده من رقبتي ورفعني عن الفراش بعنف.. مشى بي للحظات في الغرفة وكنت أنا بدأت أشعر أنني أختنق.. كانت يده ساخنة للغاية كأنها تحترق.. أمسكني وقربني من وجهه.. الوجه ذو الشفتين المقطعتين الذي يتهدل منهما الخيط الأسود والأجفان الممزقة والعينان السوداوان.. صرخ في وجهي بقوة وألقاني في الهواء تجاه الحائط.. شعرت كأنني دمية صغيرة وأنا أطير بجسدي في الهواء.. أغمضت عينيّ بعنف وأنا أنتظر لحظة الاصطدام.. طال الوقت ولم يحن الاصطدام بعد.. فتحت عينيّ ببطء لأجد نفسي ملقى أرضًا في حديقة قصر منيف.. كان الوقت ليلاً والقمر بدرًا يضفي نورًا خافتًا على الأجواء المحيطة بالقصر.. تأملت القصر.. قصر أبيض ضخم.. بضع نوافذ محطمة.. نسمة من الهواء البارد أصابتني فارتجف جسدي بشدة.. تلقائيًا مددت يدي إلى ملابسي لأجد أنني أرتدي معطفًا طويلاً قديم الطراز.. شددت ياقتيه على رقبتي لتقيني البرد وعدلت من وضع

الكوفية الصوفية التي وجدتها على كتفي أيضًا، وأنا أتأمل القصر.. أخذت أدور حوله في هدوء محاولاً إيجاد ثغرة لاقتحامه.. هذه المرة ألقاني هنا ولم يعطني أي معلومات عن مهمتي.. الأمر الذي لاحظته أنني بجسدي هذه المرة.. لم أعرف ماذا أفعل، ولكن بما أنني أمامه في الليل والظلام يحيط بي إذن من واجبي أن أقتحمه، وإلا كان أرسلني بداخله منذ البداية.. أخذت أدور حوله حتى عدت للنقطة التي كنت فيها.. الباب الرئيسي أمامي ولكنه يبدو مهجورًا ولا حياة بداخله.. الحيرة تأكل رأسي ولا أستطيع السيطرة على انتظام تفكيري بسبب البرد القارص.. سمعت حركة خافتة من خلفي فتلفت حولي في ذعر، حتى وجدت كرمة خضراء مبعثرة الأوراق.. جريت إليها وأنا أحرص على ألا أصدر صوتًا.. اختبأت بداخلها وأنا أراقب رجلين يقتربان، أحدهما يرتدي جلبابًا واسعًا وعمة وكوفية زرقاء.. يبدو أنه الخفير أو البواب الخاص بالقصر.. يحمل شيئًا ضخمًا على كتفه، لم أحتج وقتًا ولا تركيزًا لأتيقن أنه يحمل جثة، فقد كنت في هذا الوضع من قبل وأعلم كيف تبدو الجثة، ولكن من ملامحه ونظراته للرجل الآخر الذي يبدو عليه الهدوء والذكاء علمت أنه لا يعرف ماهية الشيء الذي يحمله.. توقفا في مكان قريب جدًا من المكان الذي هبطت فيه، وتلفت الرجل الهادئ حوله في شك، ثم أخذ ينظر حوله حتى وصل للكرمة وثبت نظره عليها للحظات، ولكنه سرعان ما أدار وجهه بعيدًا وأمر الخفير بإنزال الشيء الذي يحمله وأن يرحل.. راقب بعينيه الخفير وهو يرحل قبل أن يجذب يدًا معدنية كانت تختبئ في وسط النباتات التي تحيط بها، لتجعل رؤيتها أو إكتشافها أمرًا شاقًا.. جذب اليد المعدنية ليبدو

ممر تحت الأرض ينير بضوء أصفر خافت، عرفت أنه ضوء نيران.. نزل وهو يحمل الجثة للحظات قبل أن يصعد لينظر للكرمة قليلاً، ويغلق الباب السري خلفه.. لقد كان ينظر لي مباشرة.. هل رآني؟! وإذا رآني لماذا لم يكشفني؟! أسئلة غريبة دارت في ذهني للحظات قبل أن أقرر أن أتبعه.. تأكدت من أن الخفير ليس قريبًا مني ولا يراني.. مشيت بخطوات حذرة كي لا يصدر صوت مني.. مددت يدي بحرص لليد المعدنية ورفعتها ببطء ونزلت.. كان سلمًا متجهًا لأسفل.. يليه ممر طويل به خمس غرف.. اثنتان على اليمين واثنتان على اليسار وغرفة بابها مفتوح في المواجهة.. يخرج منها دخان أسود كثيف.. كان الممر مضاءً بمشاعل نارية كالتي توجد في العصور القديمة.. لم أكن أعرف الزمان ولا المكان اللذين أتواجد فيهما، ولكن هذا لم يهمني.. توقفت مكاني للحظات وأنا أفكر في الخطوة التالية.. ليس لها إلا مخرجًا واحدًا.. اتجهت بخطوات واسعة إلى الغرفة.. دخلتها وتأملتها.. كان الرجل يقف أمامي مبتسمًا وهو ينظر لي.. راقبت الغرفة بنظرات سريعة قبل أن أعود له.. هناك مرجل ضخم بداخله شيء ما يغلي.. هذا هو سبب الدخان المتصاعد.. هناك الجثة المسجاة على منضدة جراحية وبجوارها عدة جراحية كاملة.. عدة قطع من القماش ملوثة بالدماء.. عدت بنظراتي إليه فوجدته لا يزال يحافظ على ابتسامته الودودة.. لحظات من الصمت مرت قبل أن يقرر أن يقطع حدة الصمت، فتكلم بصوت هادئ ودود: "كنت أنتظرك.. الحكايات القديمة تقول بأن مبعوث الجحيم سيصل اليوم.. ولكنني توقعت أن تكون هيئتك بشعة أو مشوهة أو ما شابه".

لم أدرِ كيف أرد عليه، بينما اتجه هو إلى المرجل الضخم ومدّ بداخله ملعقة خشبية طويلة وأخذ يقلب السائل الموجود بداخله للحظات، قبل أن يتركه ويتجه إليّ مرة أخرى وهو يشير للجثة الموضوعة على المنضدة: "هذه هي الجثة محل الصراع.. هم أرسلوك لأخذها.. في الحقيقة لا تهمني الجثة قدر ما يهمني ألا تصل بها إليهم.. لا أدري ما السبب، ولكن ينتابني شعور سيء تجاه وصول تلك الجثة تحديدًا لأيديهم.. سأفعل كل ما أقدر كي أمنعهم من الحصول عليها".

لم أدرِ أيضًا ما الرد المناسب لهذه الجملة.. في الواقع حيرتي تزداد.. ابتسمت له وهو يقترب من المرجل مرة أخرى.. كنت أتأمل الجثة.. جثة شاب قوي البنية في العشرينات من عمره.. وسيم المظهر طويل الشعر.. يبدو أنه مات مخنوقًا لأن هناك آثار حبل على رقبته وزرقة خفيفة في وجهه.. لم يكن هذا ما لفت نظري، وإنما العلامة الموجودة في ذراعه اليسرى.. لقد كان تابعًا أيضًا وموصومًا باللعنة.. في غير تركيز مني زحفت يدي لتتحسس رقبتي وأنا أبتلع ريقي بصعوبة.. عدت بنظري إلى الرجل الهادئ فوجدته يخرج شيئًا ما يشبه اللسان البشري ويمسك به ويتناوله قبل أن يغلق عينيه في استمتاع.. شككت للحظات أنه قد يكون آكل لحوم بشر آخر.. نظر لي فجأة كأنما قد قطعت استمتاعه قبل أن تظهر ابتسامة خفيفة على جانب فمه وهو يقول: "هل قابلت نكرومانسر من قبل؟!"

(٢٢)

تراجعت للخلف جزعًا، ليس خوفًا منه وإنما لقلة معلوماتي عما سأواجهه.. حاولت التركيز وهو مازال يستمتع باللسان البشري.. أعرف يقينًا الآن أنه لا يستمتع به وإنما يستجوبه.. بدأت في استرجاع معلوماتي.. النكرومانسي هو علم استجواب الموتى، وهو على ما أعتقد نوع من أنواع السحر الأسود.. يتناول فيه الساحر أجزاء من جسد الميت ليعرف ما عرفه الميت.. يأكل لسانه ليعرف ما قاله.. عيناه ليعرف ما رآه.. عقله ليعرف العلوم التي عرفها الميت.. على حد معلوماتي لم يظهر أي نكرومانسر في مصر على مرّ التاريخ.. لأول مرة ألاحظ أنه يرتدي شيئًا يشبه الكفن.. كان يهمس بصوت خافت ببضع كلمات لم أميزها، وإن كانت ذات قافية ولحن أشبه بالنشيد.. رأيت أيضًا بضع دوائر مرسومة على الأرض.. لربما كان تراجعي خيرًا لأنه أخرجني من إحدى تلك الدوائر.. أخذت أراقبه وأنا أشعر بتقزز برغم أنني كنت أرتكب أفعالاً أكثر بشاعة إلا أنني الآن سليم معافى.. حاولت ألا يبدو عليّ أي مظهر من مظاهر الرعب أو قلة الثقة وأنا أقف أمامه.. انتهي من تناول اللسان وسكن جسده للحظات قبل أن يفتح عينيه فجأة وهو يقول بصوت مختلف تمامًا عن الصوت الذي حدثني به: "لن تنجو هذه المرة.. صدقني".. لقد عرفت من الرسول السابق ماذا جرى.. أترى.. حين تناولت لسانه علمت كل ما جرى من حوار بينه وبين سيدك.. وهاهو سابقك أيضًا يرقد أمامك على المنضدة.. تناول الأذن

من المرجل وتناولها أيضًا بتلذذ، ووقف ساكنًا يستجوبها ليعرف ما سمعت.. دقائق تمرّ وأنا أقف بلا حراك لا أدري ما الذي عليّ فعله.. هل أهاجمه؟! هل أهرب؟! لا أدري أي شيء.. الحيرة تنهشني والخوف بدأ يتملك مني.. أقف كالمشلول لأراقب حركاته.. فتح عينيه فجأة مرة أخرى وإن لاحظت هذه المرة تغير ملامحه أيضًا.. كان وجهه يتبدل في بطء.. يسود إن أردت الدقة.. لم تتغير ملامحه وإنما كان جسده يتحول للون الأسود.. بدأت أرى الشر في عينيه وهو يُقلّب في المرجل بعنف وعيناه لا تفارقاني.. ارتجف جسدي رغمًا عني.. مدّ يده بداخل المرجل وسط السائل الذي يغلي بعنف ولم يهتم وأخرج يده وقد احمرّ لونها وتسلخت وهو يمسك بعقل بشري.. إذا تناوله سيعرف جيدًا حجم قدراتي، وأمام إحساسي بالتضاؤل أمامه أُفضّل ألا يعرف.. فالمجهول مخيف ولكن المعلوم ضعيف مهما كانت قوته.. أخيرًا تحركت لأمسك أحد المشارط الجراحية وألقيها تجاهه في قوة ليصطدم بالمخ البشري ويسقطه أرضًا، ليزحف أسفل المرجل وسط النيران.. نظر لي بعنف وعيناه تتبدلان بشدة لتصبحا أكثر شرًا، وهو يصرخ بكلمة لم أفهمها.. سمعت صوتًا من خلفي فاستدرت وأنا أرى أبواب الغرف الأربع تُفتح في آنٍ واحد.. فُتحت الأبواب على مصراعيها وخرج من كل منها اثنان من الجثث.. نعم جثث حية تتحرك.. بعضها قد تعفن جسده وتحلل من أكثر من موضع.. بعضها تساقطت قطع كاملة من اللحم من جذعه لتظهر عظامه النخرة جلية، و دود أسود شره يعبث بها.. أحدهم بلا عينان وإنما يظهر فأر ينظر بفضول من

الفراغ الذي تركته العين، قبل أن يزحف ليستكمل عبثه بباقي الجسد من الداخل.. لم أعلم ماذا أفعل.. فجأة أغلق باب الغرفة وهو بداخلها وتركني بمفردي في مواجهة ثماني جثث تتحرك.. تركني في معركة غير متكافئة ومحسومة النتائج.. تراجعت في عنف وأخذت أطرق على الباب بقوة وأنا أستمع إلى ضحكاته الهستيرية وهو يقول: "واجه مصيرك".

لم أدرِ ماذا أفعل.. استبدّ بي الخوف كما لم يستبد بي شيء من قبل.. جسدي بأكمله كان يرتعد.. لم أعد أستطيع التفكير.. دمعة حارة سقطت على وجنتي وانتبهت أنني أبكي بحرقة وأنا أواجه نهايتي المحتومة.. أخذوا يقتربون ببطئهم المخيف وحركاتهم المرعبة.. تركت جسدي يلتصق بالحائط وهو ينزلق للأسفل حتى جلست على الأرض وأنا مستمر في البكاء.. شعور مرعب واجهني.. شعور بالعجز وقلة الحيلة.. شعرت بمدى ضآلتي وحقارتي أمامهم.. كدت أصرخ بيأس إلا أنني خفت أن أستفزهم.. حقًا!! أهذه هي نهايتي؟ أتلك النهاية التي أستحق؟! لقد حاولت جاهدًا وتعبت حتى استطعت أن أتخلص من لعنة المرض لأقع تحت لعنة أخرى أشد وطأةً على نفسي.. قبلت أن أكون من أتباع الجن لكي أتخلص من لعناتي، لأقع الآن فريسة لميتة غير طبيعية في غير زماني ومكاني.. وإذا متُّ سيستجوب النكرومانسر جثتي.. كم هي ضيقة تلك الدنيا.. أنا منير آكل لحوم البشر ستكون نهايتي مأكولاً.. حاولت أن أنهض لأواجه مصيري إلا أن دموعي ورجفة جسدي منعتني.. حاولت مرة بعد أخرى واستندت إلى الحائط وأنا أدق

بيديّ على الباب وأراقبهم بعين تكاد تخرج من شدة الهلع.. لقد اقتربوا كثيرًا.. يجب أن يكون هناك مخرج لا أراه.. لا يزال يستمر في ضحكاته الهيستيرية: "أنا أحمد الأبانوبي.. أقوى ساحر في الشرق الأوسط كله.. أنا الذي سأقهر تابع الشيطان.. خطتي المحكمة تعمل جيدًا".

ضحكاته الهستيرية تثير أعصابي وتستفز خوفي.. تراجعت خطوتين وشعرت بيد أحدهما تمسني قبل أن أجري إلى الباب وأصدمه بكتفي بعنف.. لم يتحرك ولو إنشًا واحدًا.. حاولت مرة أخرى وهذه المرة أمسك يدي.. انتزعت يدي بعنف وأنا أشعر بجسدي يقشعر من لمسته، كأنما على يدي ألف ثعبان يزحف.. ضربت الباب للمرة الثانية إلا أن شيئًا لم يتغير.. وقفت أرمق الباب من بين عينين أدماها الدمع، ثم استدرت لأواجه مصيري.. وقفت وفتحت يدي وأغمضت عيني ووقفت أنتظر.. آلاف المشاهد مرت عليّ وأنا مغمض العينين.. أمي وهي تقتل أبي وتحطم رأسه.. أمي وهي تُطعمني اللحم البشري.. أمي وهي تحاول أن تدفعني بعيدًا لكيلا أخنقها.. جثتها الطازجة في المقابر.. الطفل المولود والطفل المشرّد.. الدجال وصبيه.. الحمام المليء بالدماء.. الحلم الذي وُصمت فيه.. الكلمات التي عرفت تفسيرها.. شكله وهو يقاوم ليفتح فمه وعيناه المخيطتان.. مهمتي الأولى وتابعه الذائب.. دموعي تسيل بشدة وأنا أضغط على أسناني وأنتظر قدري ومصيري.. مصيري الذي خططت كل حرف فيه بيدي.. طالت فترة انتظاري ففتحت عينيّ ببطء ورأيت مشهدًا من أغرب ما يكون يحدث أمامي.

(٢٣)

نظرت أمامي بدهشة وأنا أراقب شيخًا طاعنًا في السن يتحرك برشاقة الشباب.. كان يتحرك بين الجثث ويتفادى هجومها وينتهز الفرص التي تتاح له ليطعنها بعصاه.. ذات الشيخ العجوز الذي يصاحبني منذ بدء مهماتي.. بلحيته المنمقة وعينيه الخضراوين وهدوئه المحبب للنفس.. رأيته في مهمتي الأولى مصاحبًا لوالدي الطفلين.. ولكن هل كان الجميع يراه.. إنه لم يتحدث لأي منهم ولم يخاطبه أحد، وبعد عودتي من مهمتي السرية وجدته قد ربطني في الفراش ليتحدث معي.. كانت كلماته قليلة.. أثارت الفضول في قلبي بدلاً من أن تشبعه.. واختفى قبل أن يراه السيد أو التابع.. لم يره غيري، ولكن الجثث التي تترنح وتقع أرضًا من ضرباته قطعًا تشعر به.. استمر في قتالهم وانشغل الجميع عني، ومازال الساحر يضحك بهستيريا بداخل غرفته المغلقة.. كنت أراقب المعركة.. لم تستمر طويلاً.. لا بسبب قوته وإنما بسبب القاعدة المشهورة التي تقول إن الكثرة تغلب الشجاعة.. كنت أراه بدأ يتقهقر للخلف في اتجاهي.. لم أكن في حالة نفسية تسمح لي بمشاركته القتال.. أخذت أراقبه بعينٍ واهنة من شدة البكاء.. نفسيًا كنت أشاركه القتال وأصرع بدل الجثة أربعة، ولكن جسديًا كنت أقف بعينين منتفختين وأنف أحمر وقدمين متهالكتين لا تقويان على حملي، أراقبه وهو يتراجع في قوة.. كلما أسقط جثة أرضًا قامت من جديد لتحاربه.. بدا أن تلك المعركة بلا نهاية.. اتجه إليّ وأمسك بيدي وهو لا

يزال يدفعهم بعصاه.. لمسة يده أشعرتني بالقوة.. حماسة غريبة بدأت تدب في أطرافي.. دفعت أقرب الجثث لي بقدمي فتراجعت للخلف قبل أن تتعثر لتسقط أرضًا.. نظر لي وقال بصوت عالٍ: "هيا".

نظرت له بدهشة وأنا لا أعرف ما المفترض أن أفعل.. لاحظ دهشتي فصرخ بي بقوة أكبر: "يجب أن نغادر هذا المكان والزمان حالاً.. هيا.. نحن نخوض معركة خاسرة".

لا زلت لا أفهم ما المفترض بي أن أفعل.. هل أساعده لنهرب من هذا المكان أم المفترض أن أستخدم قدرتي في السفر عبر الزمن؟ كيف حضر هو إلى هنا، ولماذا لا يستخدم قدرته هو؟! لاحظ طول فترة تفكيري فصرخ بي ليخرجني من عالم تساؤلاتي: "هيا نرحل من هذا الزمن.. لنعد لزمنك.. فقط انتقي مكانًا آخر غير مكانك".

أغمضت عينيّ وركزت بشدة.. مرت لحظات قبل أن أفهم أنني لن أستطع.. لم أدرِ هل لأنني أحاول نقل شخصين أم لسبب آخر لا أدريه.. نظرت له بيأس ونحن نواصل دفع تلك الجثث بعيدًا عنا.. صوت الضحكات صمت ويبدو أن صاحبه اتجه ليفتح باب الغرفة.. سمعت صوت مفتاح يدور في باب الغرفة في نفس اللحظة التي قال فيها: "يبدو أنه حصّن هذا المكان ضد قدراتك.. يجب أن نخرج لتحدث عملية الانتقال".

جذب يدي وهو يدفع جثتين كانتا قد اقتربتا منا.. ركلت جثة أخرى لترتطم بجثة وتقعان أرضًا.. عدونا بجوار الأربعة الباقين وتفاديناهم ونحن نندفع للخارج.. صرخ الساحر بصوت جهوري بكلمات لا أفهم معناها، ولكن نظرة حانت مني للخلف لأجد التابع السابق الذي كان يرقد على منضدة الجراحة يقف بين يديّ الساحر.. يقف وعيناه مصوبتان تجاهنا ونحن نركض والشرر يتطاير منهما.. نظرت للشيخ الذي قال لي من بين لهاثه: "إذا وقعنا في يده سينتهي الأمر.. أسرع".

و كأن صرخته كانت تحمل أمرًا مباشرًا لكل عضلة في جسدي.. دبّ الحماس في جسدي وشعرت بالنشاط فجأة.. أسرعت واتجهنا إلى السلم وتواثبنا عليه حتى خرج كل منا إلى الخارج، ألقى الشيخ بجسده على العشب الذي ابتلّ من قطرات الندى وحاولت أنا إغلاق الباب إلا أن يد التابع منعتني.. أخذت أحاول إلا أنه كان أقوى مني.. كان على وشك الخروج.. عندها قام الشيخ ودفعه في صدره العاري بطرف عصاه بقوة ليختل توازنه ويسقط على السلم.. أغلقت الباب وألقيت جسدي على الأرض إلا أن الشيخ نظر لي بقوة وهو يقول: "أسرع فلا وقت للراحة، سيأتي لنا بأسرع مما تعتقد.. هيا".

أمسك بيدي فوقفت وأنا أركز قدر المستطاع وأحاول ألا يتشتت تركيزي.. أغمضت عينيّ استدعاءً لكل آلهة التركيز.. صوت الكوة وهي تُفتح مصحوبًا بزئير التابع السابق وصوت تأوهات الجثث وصرخات الساحر يشتتني، إلا أنني أركز.. الصوت ينسحب تلقائيًا والهدوء يعمّ..

فتحت عينيّ فوجدت الشيخ بجواري يتطلع إليّ بعينيه الخضراوين وهو يقول بصوت خافت ويضع يده على فمي لأصمت: "لقد نجحت ولكنك قدتنا إلى التهلكة".

تأملت المكان من حولي فوجدت أنني أتممت عملية الانتقال بالفعل ولكنني نقلتنا إلى غرفتي.. رفع يده من على فمي ببطء.. كنت قد بدأت أشعر بالثقة تجاهه، وإن كنت لا زلت لا أعلم من هو.. سألته بصوت خافت خوفًا من أن يسمعنا السيد: "من أنت؟"

"أنا الموجود في كل زمان وفي كل مكان.. أنا الذي ينتفض مني سيدك.. أنا الذي هزمته من قبل وكسرت سطوته قبل أن تأتي بضعفك وتساعده حتى استردّ قوته.. أتدري أنت كيف كسرت سطوته؟ أتدري كيف نجحت في إنقاذ العالم منه؟ أتدري تابعه الذي حررته أنت ماذا سيفعل في العالم؟! أنت ضعيف والضعف جبن وخضوع".

"لم يكن أمامي خيار آخر".

"أنت اخترت ألا يكون لك خيار آخر.. اخترت أسوأ الحلول.. أن تيأس.. ألا تعلم أن للمرء في اليأس وفاة؟ كان لابد أن تحاول المرة تلو الأخرى.. ألا تستسلم.. هل حاولت أن تتحلى بالقوة وبالشجاعة وترفض؟ هل حاولت أن تقاوم؟ استسلمت وفكرت في نفسك وفي حياتك وتركت العالم ليحترق من خلفك.. لم تفكر في عواقب قراراتك التي اخترتها.. لم تفكر أنك لكي ترتاح أنت ستسبب التعب والأذى لكم؟ كنت أنانيًا

طماعًا وكدت تتسبب في تدمير العالم.. أنت لا تعرف ماذا سببت ولن يتركك سيدك تعرف حتى لا تتراجع".

صمت فجأة ونظر للباب في تركيز قبل أن يشير لنقطة خلفي.. استدرت لأرى إلى ماذا يشير.. لم أرَ شيئًا خلفي وعندما استدرت لم أجده وإنما وجدت سيدي وتابعه يقفان في مواجهتي وأعينهما تنبض بالشر.. تراجعت للخلف في رعب ولم أدرِ ماذا أفعل أو كيف أهرب من قبضتهما.. التفتُ إليه فلم أجده.. لقد تركني لأواجه أبشع كوابيسي.. بمفردي!!

(٢٤)

يبدو أن المواجهة قد حانت مبكرًا.. لا أعلم أذلك الشيخ أنقذني من الموت بين مخالب الجثث أم من جنون الساحر وسحره الأسود، أم حكم على بالموت بين أنياب سيدي! تراجعت للخلف وأنا لا أقوى على رفع عينيّ من عينيه.. كان التابع يسير خلفه وهو يصدر خوارًا مرعبًا.. جسدي بأكمله كان يرتجف بشدة من الخوف.. تقدم التابع عنه ومشى إلى بخطوات بطيئة وخواره يتعالى.. مدّ يده إليّ وهو يصرخ بشدة.. شعرت أن الهواء أيضًا يرتجف رعبًا من صرخته.. تراجعت للخلف ولكنه كان أسرع مني.. قبض على رقبتي بيده.. شعرت أن الهواء لا يصل لي.. مجرى الهواء انغلق تمامًا تحت قبضته القوية.. قربني من وجهه وصرخ بشدة.. زئيره العالي ورائحة أنفاسه الكريهة.. ملامحه المرعبة ويده الذائبة ذات الأظافر الطويلة.. الفزع الذي ارتسم على وجهي.. هل نجوت من الموت هناك لأموت هنا؟! لماذا لم يتركني لأموت هناك.. هناك ميتة وهنا ميتة، وكلتاهما مرعبة فما الفارق؟ ليته تركني هناك.. صيحة قوية صدرت من السيد.. شعرت بجسد التابع يرتجف.. ملامحه تبدلت للحظات من الشر إلى الألم.. تركني وأسرع ليركع أمام سيده الذي نظر له بازدراء.. سعلت بقوة وشهقت وأنا أخيرًا أشعر أنني أتنفس.. تركت جسدي يسقط على الفراش وأنا أجاهد بقوة لألتقط أنفاسي.. كاد قلبي يتوقف وأموت خنقًا إلا أنني تنفست وإن كنت لا أزال سأموت ولكن رعبًا.. أشاح وجهه عن تابعه ودفعه بيده ومرّ..

اتجه إليّ في خطوات بطيئة.. ملامحه ترسم لوحة مجسدة للشر.. ذات الملامح التي رأيتها ألف مرة، وإن لم تكن مرعبة قدر هذه المرة.. توقف أمامي وأخذ ينظر لي بحدة ولا يتحرك.. تسمرت مكاني دون أن آتي بأي حركة خشية استفزازه.. لم أدرِ ما المدة التي وقف فيها أمامي ينظر لي بلا حراك، ولكنها مرت عليّ كألف عام.. رأيت أبشع الميتات وأفظع أساليب التعذيب تمرّ أمام عينيّ وأنا أراقب عينه كالحة السواد.. تحرك أخيرًا وأدار ظهره لي وأمر تابعه بكلمة واحدة فقط بصوت عالٍ واضح لم أفهمها، فركع تابعه تحت قدميه مرة أخرى قبل أن ينظر لي وقد اتسعت ابتسامته الشريرة.. كان الصمت يسيطر على المكان بأكمله إلا من صوت أنفاسي المتهدجة وصوت خطوات التابع الثقيلة وهو يتجه إليّ.. وقف التابع أمامي ونظر لي وابتسامته تتسع بشدة، قبل أن يمد يده ويمسك برقبتي مرة أخرى.. حاولت التملص منه إلا أن قبضته كانت الأقوى.. أمسك بي بقوة ودار بي وألقى بي في الهواء.. لم أكن لأستطيع المقاومة.. توقعت أن أصطدم بالحائط أو أن أنتقل بالزمن كالمرة الماضية، إلا أنني وجدت نفسي في قبضة السيد.. كان يمسكني بقوة وينظر في عينيّ.. يده كانت تقترب بشدة من صدري.. حاولت أن أركله.. أن أهرب.. أن أقاوم.. حاولت فعل أي شيء وكل شيء إلا أنه لم يكن لي قبل بمثل قوته.. كنت بين يديه كالدمية.. مخالب يديه القذرة تقتحم عنقي.. خيط من الدم الدافئ يسيل على رقبتي.. يبدو أن منظر الدم أو رائحته استفزّ التابع الذي صدر منه زئير خافت قبل أن يُحوّل سيده نظراته تجاهه ليصمت تمامًا.. مسّ صدري

بيده وأراح كامل قبضته ذات الأصابع المخيطة على صدري.. نظر لي وسمعت صوت قعقعةِ نيران يتردد في المكان إلا أنني لم أجرؤ على أن أنظر حولي.. تعالى الصوت بشدة من حولي قبل أن أسمع صوته المتحشرج الآتي من بين النيران يصرخ بشدة: "فشلت!! فشلت ومصيرك استحققت! أيها الفاني أنت اخترت النهاية.. كتبتها بيديك.. كنت ستُخَلّد في التاريخ كتابع لسيد العالم، إلا أن غباءك حال.. بيديك كتبت النهاية.. العذاب رفيق دربك القادم.. استمتع به وأنا سأعود لأحقق حلمي وأقود شياطين الجحيم لأرضكم المقدسة.. سندنسها كما سأدنس روحك، ولكن لن تملك إلا المشاهدة والتحسر على منصب كان بين يديك وذهب.. منصب التابع الراكع المؤبد.. إنسيّ فانٍ".

شعرت بعدها أن آلام العالم كله تصبّ صبًا إلى روحي.. عظامي كانت تصطك ببعضها في عنف شديد.. روحي تنز صديدًا مؤلمًا من شدة الألم.. أنفي وأذني وفمي يصبون الدماء كأنهم صنابير مفتوحة.. عيناي تؤلماني بشدة والرؤية أصبحت مشوشة، صداع هائل يجتاج رأسي ليصدمها بعنف شديد.. أشعر أن هناك فراغًا هائلاً بداخل رأسي تتكسر فيه آلاف الألواح الزجاجية بدويّ هائل مسموع.. أشعر أن جسدي يتصبب عرقًا باردًا.. جسدي يرتجف، لا أعلم أهي البرودة أم الضعف.. كأن هناك قبضة تعتصر قلبي وكليتيّ بعنف.. رقبتي تؤلمني بشدة.. أشعر بخيط من البول الدافئ على قدميّ.. أفقد التحكم في كل عضلاتي.. لا أستطيع أن أشمّ شيئًا.. تركني لأسقط أرضًا.. ارتطام جسدي بالأرض من تلك المسافة البطيئة كان يشبه اصطدام جسدي

بقطار يسير بسرعة مهولة.. تأوهت بشدة إلا أنني لم أسمع لتأوهاتي صوتًا.. لا أعلم أبسبب الدماء التي تسيل من أذني أم أنني من الضعف بحيث لا أستطيع إصدار أي صوت.. حركات لا إرادية من يدي اليسرى وقدميّ تخبرني بأن المرض اللعين تمكن من جسدي بشدة.. فتحت عينيّ في إصرار وأنا أراقبه يقف هو وتابعه أمامي ويبتسمان بشدة.. أسمع صوته كأنه مكتوم يأتي من مكان بعيد: "تركت الخلود واخترت الموت.. واجه قدرك المكتوب.. واجهه وإن استطعت التغلب عليه ستجدني.. لن أتركك حتى تأتيني ضيفًا في مملكتي.. تأتيني لتجدني أحلق في الجحيم خالدًا لا أموت".

حاولت أن أرد إلا أنني لم أجد الكلمات المناسبة للردّ، وإن وجدتها فلا أعتقد أنني أقوى عليها.. كنت أقاوم بشدة كي لا أفقد الوعي، ربما بسبب وجوده وربما بسبب خوفي من إغلاق عينيّ.. اختفى فجأة من أمامي هو وتابعه وشممت بأنف مكتوم ينزف رائحة احتراق.. حاولت أن ألتفت إلا أنني لمحتها.. لمحت الزهرة الحمراء التي تتوهج في عنف.. كان آخر شيء أراه قبل أن أُغلق عينيّ وأنا أشعر بها تلفح ظهري بشدة وتكويه.. لم أعد أحتمل.. لم أعد أستطيع المقاومة.. سأستسلم للمرة الأخيرة وأُغلق عينيّ لآخر مرة، لأضع نهاية الفصل الأخير في قصتي.. قصة التابع المستسلم.

آلام شديدة تهاجمني.. أشعر بها لفترات، وفترات أخرى لا أشعر بشيء.. ومضات من حياتي تمرّ أمام عينيّ.. أشعر الآن بآلام شديدة لا أقوى على تجاهلها كما كنت أفعل.. فتحت عينيّ ببطء شديد وأنا أتأوه.. مرت أمام عينيّ معركتي الأخيرة.. تلك المعركة التي دخلتها خاسرًا وخرجت منها خاسرًا.. ضوء قوي أغشى بصري عندما فتحت عينيّ.. أغمضت عينيّ مرة أخرى وفتحتها بعد برهة بالتدريج لأتعود على الضوء.. شاب أسمر يقترب مني ببطء وفي يده سكين ضخم.. حاولت أن أتحرك إلا أن مجرد الفكرة آلمتني بشدة.. تحاملت على نفسي وحاولت التحرك مرة أخرى إلا أنني فوجئت أنني مربوط في الفراش.. حاولت التحرك مرة بعد الأخرى.. الآلام تهاجمني بعنف.. علامات الفزع تظهر على الشاب النحيل وهو يحاول طمأنتي بكلمات مبهمة لا أفهمها.. كنت لا أزال أحاول التخلص من قيودي بحركات عنيفة تؤلمني ولكنها لا تفيد في فك القيد.. كنت موثقًا بشدة.. تراجع الشاب للخلف في هلع وهو لا يزال يحاول طمأنتي بهمهمات منعها الارتباك من أن تكون كلمات واضحة المعالم.. خرج من الغرفة لتهدأ حركتي قليلاً وأتأمل المكان.. كنت موجودًا في غرفة ضيقة نوعًا ما على فراش نحاسي قديم.. مقيد الأيدي والأرجل في الأربعة أركان، وهناك حبل غليظ يلتف حول صدري ووسطي يقيدني في الفراش.. الغرفة قديمة والحوائط بها بعض الشروخ البسيطة إلا أنها نظيفة للغاية.. حوائطها وسقفها

مدهونة باللون الأبيض الناصع، بينما بضع نباتات متسلقة تنمو وتعلو على جدران الغرفة لتضفي لمسة جمال لا بأس بها.. في نفس المكان الذي كان يقف به الشاب هناك منضدة صغيرة تقف وحيدة وسط الغرفة.. موضوع عليها زجاجة مياه باردة تتكثف حبات الماء على سطحها وبجوارها صحن عميق موضوع على حافته قطعة من القماش.. من الواضح أنها كانت تُستخدم ككمادات لي أثناء فقداني للوعي.. يبدو أنهم اهتموا بي أثناء فقداني الوعي لفترة لا يعلمها إلا الله.. لحظات مرت قبل أن يخترق الصمت المهيمن على المكان صوت خطوات تقترب في سرعة.. في البداية ظهر الشاب الذي يحمل السكين وعلامات الجزع لا تزال محفورة على وجهه، ويليه الشخص الوحيد الذي أتمنى رؤيته في هذا الموقف.. وقف على باب الغرفة ينظر لي بعطف وحنان.. نظرات عينيه الخضراوين تحمل لومًا وإن كانت تقطر حبًا.. لحيته البيضاء وجلبابه النظيف وعيناه الحالمتان وعوده الصلب وابتسامته تجعل كل هذه الأشياء تكاد لا تظهر من فرط قوتها.. نظر لي مبتسمًا وهو يقول بصوت متهدج حانٍ: "لا تخف.. حسين تابعي وصبيي وبمثابة أخيك".

كلماته كانت كالبلسم الشافي على جروح روحي.. تابعت بعينيّ الشاب المتردد الفزع وهو يتقدم بخطوات مرتعشة وبيد مرتجفة يمسك السكين.. وصل إليّ وأمسك يدي بيده.. كانت يده مرتجفة باردة إلا أنه كان يحاول التماسك أو على الأقل التظاهر بالتماسك.. أمسك يدي وأشاح بوجهه تجاه الشيخ بنظرة متسائلة، فأجابه الشيخ بابتسامة

حنون وإشارة من رأسه.. اقترب بالسكين بشدة من يدي قبل أن يقطع الحبل الذي يوثقني في الفراش.. دار حول الفراش في تؤدة وهو يحلّ وثاق يدي الأخرى.. أمسكت رسغي ودلكته بيدي الأخرى عدة مرات لأتخلص من الأثر المؤلم.. قطع الحبل الغليظ الذي يحيط بجذعي وقطع وثاق قدميّ.. اعتدلت بجسدي على الفراش وأنا أمططه بحركات واسعة لكي أتخلص من آلام السكون لفترة كبيرة.. مفاصلي كانت تئن من قلة الحركة.. اعتدلت وجلست على الفراش مواجهًا الشيخ.. حاولت الوقوف إلا أن دوارًا هائلاً هاجمني بشدة لتميد الأرض تحت قدميّ.. كدت أسقط لولا أن حسين أنقذني وسندني حتى عدت للفراش.. توجه الشيخ إليّ بزجاجة الماء وهو يقول: "لا يزال الوقت مبكرًا ونحن نريدك في أتمّ صحة لتُصلح أخطاءك".

كانت كلماته مبهمة وغامضة إلا أن ابتسامته الحنون كانت تُعوّض كل شيء.. مددت جسدي على الفراش وأطلقت لأفكاري العنان.. ونمت.. نمت كما لم أنم من قبل.

لم أعرف الزمن الذي مرّ عليّ نائمًا.. استيقظت وأنا أشعر بجسدي يئن من الألم وإن كنت ذهنيًا قد نلت كفايتي من الراحة.. كانت الغرفة مظلمة.. تحاملت على نفسي وقاومت دواري ووقفت.. جاهدت كثيرًا كي أحافظ على اتزاني.. مشيت ثلاث أو أربع خطوات قبل أن تصيبني نوبة دوار حادة وأخذ جسدي يرتجف بشدة، إلا أنني تحاملت على نفسي ومشيت حتى زر الإضاءة.. أضأت الغرفة واستدرت لأعود للفراش مرة أخرى.. فوجئت بحسين يقف بجوار الفراش يتأملني في صمت..

استجمعت شجاعتي وتغلبت على المفاجأة وأنا أقول بصوت حادٍ: "منذ متى تقف هنا؟! ماذا كنت تفعل في الظلام؟!"

لم يرد وإنما بدا الارتباك على وجهه وهو يندفع لخارج الغرفة.. توقعت أن يظهر الشيخ ليطمئن قلبي ويريحني بكلماته الموزونة.. بالفعل لم يطل انتظاري قبل أن يبدو بوجهه البشوش وهو يجلس بجواري على الفراش.. أزاح الأغطية وثنى قدمه تحته وهو يجلس بجواري ويربت على كتفي: "لقد أمرته أن يراقبك كي لا تحتاج شيئًا.. لقد قال لي كذلك أنك استطعت أن تنهض من فراشك وتمشي بطول الغرفة وتعود مرة أخرى.. هذا مؤشر جيد".

"من.. من أنت وما هي قصتك؟! ألم يأنِ الأوان لكي تقص عليّ قصتك؟"

"أنا يا بني العزيز بأمر الله.. آخر سلالة المحاربين ضد رسل الجحيم.. منذ بدء الخليقة وهذا الشيطان يحاول أن يحتلّ الأرض بمساعدة أبنائه العشرين.. منذ بداية الخليقة نحاربهم.. حاربهم أبي وجدي وجد جدي.. سلالة محاربين وسلالة شياطين.. لم يعد من المحاربين سواي وتابعي الضعيف حسين، ولم يعد منهم سوى الشيطان وابن واحد.. قبل أن تُعيد أنت ابنه الآخر للحياة مرة أخرى.. الآن عاد هو وابناه الأقوى بارنوخ ومسيوخ.. ستساعدني لكي نخلص العالم منهم وسأساعدك لتصبح أهلاً لمبارزتهم".

"كلامك جيد ولكن المرض قد نال مني ما أراد.. لم يعد جسدي ينفع بشيء.. لا أخفيك سرًا، أنا أنتظر نهايتي بالفعل".

"لقد عالجتك بعشب نادر أحضرته لي ملائكة ربك.. لن أقول لك أن المرض زال ولكنه تأجل لمدة محددة، ويجب أن تتخلص من لعناته قبل تلك المدة وإلا..."

"وكيف؟! كيف سأتخلص من المرض للأبد؟"

"إذا مات أبناء الشيطان مات الشيطان، وإذا مات الشيطان زالت أضراره، ولا تنسَ أنه آخر من أعطاك المرض، فلو زال لزال المرض.. فهمت؟"

"فهمت".

"وما قرارك".

"أنا معك".

"أحسنت الاختيار.. فلتنم وترتح، وفي الغد تبدأ مع حسين في البحث عن الابن الأصغر بارنوخ لتتخلصا منه".

ناولني بيده كوبًا به مشروب عسلي اللون ذو رائحة منفرة، ونظر لي بابتسامة هانئة قبل أن أبتلعه بأكمله لأشعر برأسي يثقل والنعاس يغالبني.. لم أقاوم، أو بمعنى أصح لم أرد أن أقاوم.

(٢٦)

في الصباح استيقظت وقد استرددت جزءًا كبيرًا من قوتي بفضل هذا المشروب الذي لا أعلم كنهه، ولكنه يُحسّن من حالتي فعلاً.. كانت أول مرة أخرج من غرفتي.. أحسست براحة نفسية كبيرة بمجرد خروجي منها.. حجر ثقيل انزاح عن صدري.. إحساسي بأنني سجين تخلى عني أخيرًا.. شعرت بحريتي وأنا أشاركهم طعام الإفطار على منضدة طعام كبيرة تتوسط صالة ضخمة.. هناك مكتبة أيضًا بها عدد كبير من الكتب وأريكتان متواجهتان.. غرفة ذات باب صغير تتوارى خجلاً بجوار ضخامة المكتبة وعلى بابها علامة كبيرة باللون الأحمر.. لمح في عيني التساؤل فأجابني بابتسامة واسعة فهمت منها أن لكل أذان أوان.. انتهي الإفطار وقمنا لنجلس على الأرائك.. جلست على أريكة وجلس هو في مواجهتي، بينما ظل حسين واقفًا يتابعنا بعينين سعيدتين.. كان جلّ ما يسعده أنه وجد رفيقًا يحمل عنه همّ العمل الصعب.. كنت بدأت أرتاح نفسيًا له.. لا أدري إن كان ذلك لفزعه عندما رآني أم لمسحة الطيبة التي تظهر جلية على قسمات وجهه الأسمر النحيل.. جلس الشيخ في مقابلتي وابتسم وهو ينظر لحسين الذي تحرك إلى المكتبة.. تحرك بيده بين الكتب وهو يقرأ عناوينها بعينيه حتى وصل إلى مبتغاه.. توقف بيده عند كتاب محدد ونظر لي وابتسم، قبل أن يجذب هذا الكتاب بطريقة معينة لينفتح درج سري في أسفل المكتبة.. تناول منه حقيبة خيشية صغيرة وحملها بحرص شديد وهو يعطيها إلى الشيخ،

الذي تناولها كأنه يتناول رضيعًا هشًا يخشى عليه من الكسر.. نظر لي الشيخ وهو ينظر للكيس في حنان كأنه ابنه.. تبادل النظرات مع حسين للحظة قبل أن يعود ويراقب ملامحي وهو يسألني: "مستعد لتفهم؟"

ترددت للحظة إلا أنني حسمت أمري تمامًا، وهززت رأسي إشارة بالموافقة.. أمسك بيدي ووصل لباب الغرفة، وقبل أن أدخل شدّ قبضته على يدي وقال: "لا تفتح الكتاب إلا في الوقت المناسب!"

"ومتى يحين الوقت المناسب؟!"

"ستعرف".

"كيف سأعرف؟!"

"سيخبرك الكتاب!!"

لم أفهم الجملة الأخيرة.. كيف سيخبرني الكتاب؟! ابتلعت تساؤلاتي ومددت يدي لمقبض الباب وحاولت فتحه، إلا أنه كان صلبًا لا يدور.. مدّ الشيخ يده وأمسك بيدي فوق المقبض وأخذ يتلو تراتيل بصوت خاشع، وبدأ المقبض يدور في يدي.. لنفتح باب الغرفة المظلمة ودخلت إليها وأغلقت الباب من خلفي.. شعرت أنني لا أنتمي لعالمنا هذا وإن كنت أشعر أنني محلق في السماء أراقب وأفهم.

*****

"أيا بني، أنصت لكلام الأجداد.. إن الأجداد كانوا حكماء.. فلتصعد يا بارنوخ لسفح الأرض ولتختر لك إنسية من بني البشر وتتزوجها، ولتنجب لنا ذرية من أنصاف الشياطين وأبناء الجحيم لتعبث في الأرض وتعيثها فسادًا".

*****

"أيا أبتِ، لقد فعلت ما أُمرت.. عشرون ابنًا بين البشر لا يميزهم عن البشر شيء إلا الجحيم المستعر بداخلهم.. ولقد لقنتهم وصايا الجحيم وسيعملون بها".

*****

هكذا بدأت الحكاية وهكذا سطر الشيطان أول سطورها.. في حوار دار بينه وبين أبيه لاحتلال الأرض بذريته الشيطانية.. تأملت الغرفة من حولي.. غرفة واسعة نوعًا ما وإن كانت تتميز بباب صغير.. رائحة شنيعة لا تُحتمل.. غطيت أنفي بيدي وأنا أتأمل الغرفة الغريبة.. حوائط مغطاة بالكامل بالدماء الجافة التي تُثير بداخلي آلاف المخاوف من تلك الغرفة.. السقف أيضًا مغطى بالدماء.. مشهد شبيه بذاك المشهد عندما تخلص التابع من الدجال وصبيه.. هناك مروحة سقف صدئة يبدو أن زمنًا طويلاً مر منذ آخر مرة عملت بها.. هناك أشياء تتدلى من المروحة تشبه بقايا الجلد البشري الجاف.. يتوسط أرضية الغرفة دائرة كبيرة مرسوم بداخلها نجمة تمس أطرافها، مرسومة بالدماء الحمراء القانية.. أوراق اصفرت مفروشة على كامل أرضية

الغرفة، إلا من ممر صغير يوصل بين بابها والدائرة، وممر آخر يتفرع منها يفضي إلى كرسي هزاز ضخم يقف وحيدًا بجوار أحد الحوائط، وقد نال نصيبه من الدماء المتناثرة هو الآخر.. هناك حائط واحد نجى من تناثر الدماء، مكتوب عليه كلمات غريبة بحروف عربية ولكنها كلمات غير مفهومة.. خشيت أن أقرأها.. مشيت في الممر الصغير المتفرع وأنا أنظر لحامل صغير يحمل خريطة.. على الخريطة ثمانية عشر دبوسًا أحمر، قدرت أنها للشياطين التي تخلصوا منها، ودبوسًا أخضر وحيدًا علمت يقينًا أنه يشير لمكان التابع الشرير.. ابن الشيطان قبل الأخير وبوابتي الصغري لإنقاذ نفسي وإنقاذ العالم.. مشيت حتى وصلت للكرسي.. دافع غريب بداخلي حدثني أن أُخرج الكتاب من حقيبته وأجلس على الكرسي.. وضعت الحقيبة بجوار الكرسي وجلست عليه، فشرع مباشرة في الاهتزاز ذهابًا ومجيئًا بمجرد جلوسي عليه.. فتحت الكتاب وشرعت أقرأ الصفحة الأولى.

"بسم الله.. باسمه الواحد القهار.. المستعان الجبار".

"باسمه تبدأ الحروب والمعارك.. وتبدأ الحكايات والحيوات".

"باسمه نبدأ وبجنوده نستعين".

"باسم كل ملاك حق ومبعوث رحمة.. باسم كل مخلوق خُلق من نور ليجابه النار.. باسم شلعون وبلانتي.. باسم جنود الرب في معركة الخلاص.. باسم كل من ساعدنا وسيساعدنا.. يا ربنا بك بدأنا وبك نستعين وبيديك النهاية يا رحيم".

بمجرد أن انتهيت من قراءة تلك الكلمات علمت أسماء أبناء الشياطين.. علمت كيف أجابهم.. علمت كيف أقضي عليهم.. شعرت أنني مستعد نفسيًا لتصحيح أخطائي السابقة وبدأ مسار جديد في حياتي.. المسار الصحيح.. علمت مكان كل تعويذة في الكتاب ومتى سأستخدمها.. وكيف سأستخدمها.. الكتاب علمني كثيرًا.. أغلقت الكتاب وأنا أشعر أن جزءًا منه بداخلي وجزءًا مني بداخله.. كاد عقلي ينفجر من كثرة التفكير ومن كثرة المعلومات التي ضخها الكتاب إلى داخلي.. وضعت الكتاب في حقيبته مرة أخرى واتجهت للباب.. مددت يدي إلى المقبض قبل أن ألتفت لأنظر نظرة أخيرة على الغرفة من خلفي كأنها نظرة وداع.. أدرت المقبض في بطء وأنا أخشى أن أحبس في تلك الغرفة، إلا أنه دار بسلاسة بين يديّ.. خرجت من الباب ووجدت الشيخ يقف مبتسمًا على الباب.. ناولته الحقيبة إلا أنه ربّت على ظهري بيده الحانية وهو يقول: "لقد حان الأوان لتتسلم راية المعركة الآن".

تلفتُّ بعينيّ بحثًا عن حسين فلم أجده.. نظر لي وقال: "حسين يجهز لك أولى معاركك.. في منتصف الليل تدخل الغرفة ستجد حسين والتابع.. أنت تعرف البقية، وأعدك أنني بالغد سأخبرك عن مكان الأخير.. لقد اقتربت بشدة من تحديد مكانه".

"على بركة الله".

ابتسامته الحنون كانت تتسع وقلقي من مواجهة مخاوفي كان يزيد..

(٢٧)

قبل منتصف الليل بدقائق قليلة سمعت زئيرًا قويًا يأتي من خارج غرفتي وصوت صرخات حادة.. صوت لغط في الصالة التي تقبع خارج غرفتي.. صياح الشيخ وصرخات حسين وزئير التابع الغاضب.. شعور غريب يخالجني.. لا أعلم أهو الخوف من التابع الذي طالما أرعبني وكاد يفتك بي عدة مرات، لولا تدخل السيد الذي أنقذني من مخالبه عدة مرات، أم هو الغضب مما فعل بي هو وسيده.. استجمعت شجاعتي وتناولت الحقيبة الخيشية وسرت بخطوات مرتعدة وخرجت وفتحت باب غرفتي.. أطللت برأسي لأرى ما الذي يحدث.. الصالة مظلمة.. دققت النظر فلم أرَ شيئًا.. صوت زئير انتزعني من أفكاري.. نظرت تجاه الصوت لأجد الغرفة المفتوحة.. يبدو أنهم بداخل تلك الغرفة.. مشيت إلى داخل الغرفة.. نظرت بداخلها فوجدت حسين يشتبك مع التابع المقيد.. ولكنه اقترب من حل قيوده.. المعركة سجال بينهما والشيخ يقف يصرخ في حسين بالتعليمات.. ألقيت بالحقيبة الخيشية أرضًا وقفزت أعتلي ظهر التابع الذي اختلّ توازنه من المفاجأة وسقط بي أرضًا.. اعتليته وجلست على صدره ولاحظت أنه زائغ العينين ويتنفس بصعوبة.. حلّ حسين وثاقه وهو يقاومه، وأمسك بيده بداخل تلك الدائرة وحركها نحو أحد أطراف النجمة المرسومة.. أخرج من بين ملابسه مطرقة ضخمة ومسمارًا من الصلب ذو مقدمة ملتوية.. ثبّت حسين يده بركبتيه ووضع المسمار بداخل كف يده، وطرق عليه

بالمطرقة حتى ثبّت يده في الأرض.. لاحظت أن تلك اليد لا تتحرك كأنها شُلّت أو انفصلت عن باقي جسده.. انتهي حسين من اليد وهو يتمتم بأشياء لا أسمعها بصوت منخفض.. ذهب إلى القدم اليمنى وقبع فوقها قبل أن يطرق المسمار فيها تقريبًا من قصبة ساق التابع ليثبتها في الأرض هي الأخرى.. تكرر الأمر وثُبّتت تلك القدم وكأنها لا وجود لها.. وقف حسين واتجه إلى يسار الجسد ليُثبّته أيضًا.. استغل التابع تلك الفرصة وانتفض بشدة فطرت في الهواء لأسقط أرضًا وأشعر بجسدي بأكمله يتحطم.. آلام عنيفة هاجمت جسدي بأكمله.. تحاملت على نفسي وتحملت وأخذت أقاوم الدوار، وأنا أقف بعينين لا تريان شيئًا بسبب الدوار الحاد.. وقفت للحظات حتى استعدت جزءًا من تركيزي.. رأيت التابع وقد قبض على عنق حسين بقوة وهو يجاهد لالتقاط أنفاسه، إلا أن القبضة كانت تبدو أكثر منه قوة، فبدأ يتحول لونه للون الأزرق وتقلّ حركته تدريجيًا وتنقطع أنفاسه.. اندفعت بشدة وما إن وصلت إليه واقتربت منه حتى ركلني بقدمه في قوة لأصطدم بالشيخ بعنف وأسقط وإياه أرضًا.. اصطدامي بالشيخ خفف كثيرًا من أثر سقطتي أرضًا إلا أنه فقد الوعي.. نظرت له ولحسين الذي توقف تقريبًا عن التنفس وخارت قواه، قبل أن تقع عيناي على منقذي.. أمسكت به ومشيت إليه من الجهة الأخرى.. الجهة الموثقة إلى الأرض.. شعر بي فالتفت إليّ وزأر بقوة في وجهي.. رائحة أنفاسه الكريهة الحارة جعلتني أُغلق عينيّ للحظات.. فتحت عينيّ ووجدت حسين في حالة سيئة للغاية.. اشتدت قبضتي على المطرقة وهويت بها على رأسه

فأصدر خوارًا ضعيفًا قبل أن يُغلق عينيه ويسكن جسده ويترك حسين.. امتدت يد حسين بضعف إلى رقبته وتحسسها وقبع ساكنًا بعض الوقت.. تحركت لأرى الشيخ وما أصابه.. يبدو أنه فقد الوعي فقط.. حملته بين يديّ وطرقت جبينه ووجنته برفق عدة مرات حتى فتح عينيه ببطء شديد وابتسم عندما رآني ثم إعتدل و خرج خارج الغرفة و هو يسعل و أغلق بابها خلفه.. كدت أعتذر له إلا أنني سمعت صوت سعلة حادة من حسين، الذي تورد وجهه مرة أخرى ووقف مستندًا إلى ركبتيه وهو يجاهد لتثبيت المسمار الثالث في اليد اليسرى.. تركت الشيخ وذهبت إليه وأمسكت المسمار له، وأخذ هو يهمهم قبل أن يطرق على المسمار بقوة، ثم يتجه للقدم اليسرى ويفعل بها المثل.. أصبح الآن التابع مثبتًا إلى الأرض بداخل النجمة المرسومة، وكل طرف من أطرافه الأربعة مثبت إلى طرف من أطرف النجمة، ورأسه تشير للطرف الخامس.. وقف حسين مستندًا إليّ وهو يبتسم لي ويقول بصوت مختنق: "لولاك لانتهت القصة قبل أن تبدأ".

"لا تقل هذا.. نحن إخوة تحت راية الشيخ".

ابتسم الشيخ أيضًا وهو يقف، قبل أن يتجه للحقيبة الخيشية ويمسكها ويعطيها إليّ ويخرج ويغلق الباب، لأسمع بعدها صوت مفتاح يدور في الباب ثلاث دورات كاملة.. أخرجت الكتاب وفتحته على صفحة محددة.. لا أعلم لماذا اخترت تلك الصفحة تحديدًا ولكنني شعرت أنها الصفحة المختارة.. صفحة كانت مهترئة والكتابة فيها بخط

أسود باهت ولكنه جميل ومنمق.. بدأت أقرأ من الصفحة بصوت خاشعٍ عالٍ.

"بحق أرواح الملائكة

أن ائتوا إليّ وخلصوني

من أنصاف الشياطين

وأبناء الجحيم

ورسل مبعوثة من نار

أن خلصوني منه وأعيدوه

إلى مثواه ومرتعه

بحق الروح الطيبة

أن ائتني يا ملاك الخلاص

خلصني منه

وأعده إلى أبيه

بارنوخ الشيطان

فاجمعه بأبيه في الجحيم".

صوت زئير حاد قاطعني بشدة.. توقفت عن القراءة قبل أن أنظر لحسين الذي بدا القلق جليًا على ملامحه.. نظرت للتابع الذي بدأ يتلوى في ألم.. نظر لي حسين بشدة وهو يقول بصوت مرتجف: "هناك شيء ما خاطئ".

صوت الزئير يعلو وهناك صوت قوي كأنه صوت قرقعة نيران يتعالى بقوة من حولنا.. بدأ حسين يتلفت حوله في قوة وعلامات الذعر تعلو وجهه.. صوت خوار التابع يعلو وجسده يتلوى في عنف، قبل أن يصرخ بشدة وهو يجذب يده ليطير المسمار الذي يثبتها في الهواء بعنف.. مدّ يده بسرعة مهولة إلى المسمار الآخر وانتزعه بقوة قبل أن يعتدل بجسده ويمسك المسمارين المثبتين في قدميه ويجذبهما معًا، وهو يصرخ صرخة خلعت قلبي من مكانه.. حدث كل هذا في ثوانٍ معدودة.. نظرت حولي في رعب قبل أن ألتفت لحسين الذي بدأت ابتسامة واسعة تظهر على ملامحه زادت من هلعي.. نظرت له وللتابع وهما يقتربان مني، قبل أن يهوي حسين بالمطرقة على رأسي بقوة لتسّود الدنيا أمام عينيّ، قبل أن أسمع آخر كلماته: "معذرة على هذه الخدعة ولكنه أخي الأخير".

(٢٨)

فتحت عينيّ ببطء شديد وأنا أتوقع شيئًا من اثنين.. إما أن أجدني في الجحيم لأنني متُّ غدرًا قبل التكفير عن جميع أعمالي السيئة على يد بارنوخ ومسيوخ ابني الشيطان الأخيرين، وإما أن أجد أنني لا أزال حيًا وأنهما رفضا قتلي أثناء فقداني الوعي، حتى يستمتعا بأكبر قدر ممكن من عذابي.. إلا أنني عندما فتحت عينيّ فوجئت بشيء غريب.. كنت لا أزال مسجى على الأرض ووجهي لأعلى، إلا أنني كنت أنظر للسماء الصافية.. سماء صافية خالية من الغيوم والسحب.. السماء كما يجب أن تكون.. تحاملت على نفسي ووقفت وأنا أتأمل المكان من حولي.. فتحت فمي في دهشة حقيقية.. لقد كان ما أراه هو جلّ ما أتمناه وجلّ ما تمنيته في يوم.. كنت في الحقبة الزمنية التي لاطالما أحببتها وسعيت خلف أي شيء منها.. كنت أبحث عن أغانيها وموسيقاها وأزيائها وشعرائها ورواتها وكتبها.. ابتسامة من القلب غافلتني لتظهر جلية على شفتيّ.. أنا في الثلاثينات.. كنت أريد أن أقف على قارعة الطريق لأصرخ بقوة: "أنا في الثلاثينات".

إلا أن خاطرًا ما منعني.. كنت ساقطًا فاقد الوعي في أحد الأزقة الخلفية التي يبدو عليها الفقر.. أسمع صوت السوق من حولي.. اعتمدت على حاسة السمع لكي أتتبع الصوت وأصل لمكان السوق.. وصلت للسوق ووقفت أتأمل الزحام بعينين تلمعان من شدة الإثارة والتشويق.. كم كنت أحلم أن أرى المزيد أو أعرف المزيد عن تلك

الحقبة، لا أن أراها رؤى العين.. لك أن تتخيل حماستي.. إلا أن فكرة واحدة كانت تحول بيني وبين استمتاعي بحلمي الذي تحقق.. كيف وصلت هنا وأنا آخر ما أذكره هو سقوطي بداخل الدائرة، واكتشافي أن حسين مساعد الشيخ وزميلي الجديد كان الابن الأخير للشيطان؟ ترى ما حال الشيخ الآن؟ لا أعتقد أنه يقدر على مواجهتهما بمفرده.. ربما لبعض الوقت، ولكن في النهاية لن يتحمل.. تركت نفسي أتأمل المكان من حولي.. الأزياء.. تصميم البيوت.. المحلات ولافتاتها.. طريقة تعامل الناس مع بعضها.. المقاهي.. البائعين.. كل شيء كنت أتأمله بشغف..

مرت أمامي إحدى العربات التي يجرها حصان، وسائقها يمشي بجوارها وهو يقبض بيده على لجام الفرس برقة.. تجلس على العربة سيدة ترتدي الزي التقليدي المميز لتلك الفترة.. ملاءة لف مع برقع على وجهها يخفي ملامحها، ويجلس بجوارها رجل يرتدي جلبابًا رمادي اللون وتعلو رأسه عمامة تُشبه عمامة الأزهر الشريف.. أطفال صغار حفاة يقطعون الطريق عدوًا وهم يضحكون بسعادة.. شابان أسمران يمران بجواري وهما يتناقشان باهتمام، يرتدي كل منهما جلبابًا أبيض نظيفًا ويربط وسطه برباط أحمر اللون ويعلو رأسه طربوش أحمر.. يبدو أنهم في طاقم خدم أحد الأثرياء الذين يقيمون حول هذا المكان.. رجل ضخم ذو شارب عملاق يرتدي جلبابًا واسعًا ويلتحف بشال يكفي لتغطية منضدة كبيرة، ويبتسم في سعادة وهو يتأمل امرأة تمشي بدلال واضح وتبتسم له في المقابل.. العشرات من حولي يرتدون ذات الزي باختلاف الأحجام والألوان.. وقفت أتأمل هذا المزيج الذي أبهرني.

أصوات عالية أخرجتني من حيرتي وتأملي.. التفتُّ ناحية الصوت وأنا أراقب امرأة مبرقعة – ترتدي البرقع – تتشاجر بصوت عالٍ مع أحد البائعين حول سعر اللحم وميزانه، وأشياء أخرى لم أتبينها بسبب ارتفاع صوتيهما وتداخلهما معًا.. أنهى الجزار الجدال بأن وضع قطعة من اللحم في الميزان، قبل أن يضم الموضوع كله في ورقة صفراء ويناولها إياها مصحوبة بابتسامة لطيفة وكلمة اعتذار حانية، تسببت في احمرارها خجلاً قبل أن تمشي بعيدًا وهي تتمايل في رقة.. تابعتها بعينيّ حتى ذابت وسط زحام الشارع القليل نسبيًا.. التفتُّ وأشرت لأحد المارة الذي اقترب مني بابتسامة، وهو يقول لي: "خيرًا إن شاء الله؟"

"من فضلك.. سأسألك سؤالاً غريبًا، ولكن أرجوك أن تجيب عنه".

لم يُجب وإن أشار إلى عينيه وهو يتمتم بلهجة صادقة: "لن أتأخر عنك لو أنني أمتلك الإجابة".

"سلمت عيناك.. في أي عام نحن؟!"

"نحن في عام ١٩٣٢".

امتصصت الصدمة كي لا تظهر جلية على وجهي وأنا أبذل جهدًا كبيرًا لأرسم ابتسامة صغيرة على وجهي وأشكره.. كنت أشعر بدافع بداخلي يأمرني بالذهاب والآن.. ولكن أين أذهب وأنا غريب هنا.. روحًا وزمانًا ومكانًا.. تركت قدمي تقودني إلى مقهى صغير فقير.. جلست عليه

وطلبت من النادل كوبًا من الشاي الدافئ وجلست أحتسيه وأنا أتأمل المارة في الشارع، عندما رأيته.. لم أكن في يوم من الأيام أتخيل أنني سأجلس على مقهى صغير في الثلاثينيات لأرى أحد أبناء الشيطان يمر من أمامي.. كان المارة يرونه شخصًا عاديًا إلا أنني أراه على حقيقته.. أرى هالة من النيران الزرقاء التي تتوهج حوله في عنف.. استطالت أذناه بشدة وتضخمت مقدمة رأسه بشدة، حتى لتظن أن ملامحه تقبع في ربع وجهه السفلي فقط.. كان متجهمًا وملامح الغضب والشر محفورة على ملامحه الشيطانية.. احمرّ جلده بشدة وبرز نابا من فمه.. تلاقت عينانا للحظات.. عيناه اللتان تشبهان جمرتان من الجحيم.. يبدو من ملامحه أنه لا يعرف أنني أعرف حقيقته وأراها جيدًا.. قمت من مكاني وبحثت في جيبي حتى وجدت ورقة نقدية قديمة تعود لهذا الزمان.. تركتها بجوار الكوب وتبعته من بعيد دون أن يشعر بي.. قادته قدماه وأنا من خلفه إلى تبة صغيرة على أطراف البلدة.. دخل إلى منزل مهدم.. لا يزال الوقت مبكرًا.. عدت إلى المقهى وقبعت فيه أفكر حتى حل الظلام.. قمت واتجهت إلى هناك ووقفت أمام البيت الصغير أتأمله.. كان بيتًا صغيرًا من دور واحد.. له بوابة حديدية ضخمة.. تساقط أغلب طلائه وتقشر الجزء الباقي عليه كأنما يريد أن يلحق بالباقي.. فتحت البوابة الحديدية الثقيلة.. أحدثت صريرًا مزعجًا.. توقفت مكاني أنظر إلى الشباك حتى أستطيع أن ألمح أي حركة أو أي ضوء أو أي علامة حياة.. لحظات التقطت فيها أنفاسي ثم توجهت إلى الباب الخشبي.. عالجت قفله البدائي بقطعة سلك رفيعة.. تسللت إلى الشقة في حذر كالقط..

(٢٩)

في البداية لم أرَ شيئًا لكنني لمحت من إحدى الغرف ضوءًا أزرق خافتًا.. مشيت حتى تلك الغرفة ودلفت إليها.. لمحته نائمًا وهو يعطيني ظهره.. أخرجت مطرقة من بين ملابسي وعالجته بضربة كنت أعرف يقينًا أنها ستبقيه في حالة السبات مدة طويلة حتى أنهي ما أتيت لأجله.. ربطت يديه إلى بعضهما وربطت قدميه بحبل ليفي قذر وجدته في الشقة.. أشعلت مصباحًا صغيرًا ووقفت أتأمل الغرفة.. كانت غرفة واسعة ولكنها تحتاج إلى ترميم.. لمحت السقف الذي انهار أغلبه والحوائط المتسخة.. لمحت العناكب التي تجمعت في بيوتها حول أركان الغرفة كأنها تشاهد فيلمًا سينمائيًا، وأحصيت باقي محتويات الغرفة.. مكتب متخاذل أمامه كرسي يبدو أنه جديد نوعًا.. باب الغرفة خشبي إلا أنه متهالك.. شماعة خشبية واقفة معلق عليها قدر قليل من الملابس.. يبدو أنه أعزب لأنني لم أرَ غير ملابسه في الغرفة.. تأملت باقي محتويات الغرفة قليلاً، ثم أخرجت من جيبي سكينًا رفيعًا وشققت ساعدي بطرفه، وتركت قطعة بالية من القماش تمتص دمي قليلاً إلى أن تشبعت بالدماء.. ربطت قطعة أخرى من القماش حول الجرح لتغلقه.. أخليت جزءًا من الأرض ورسمت عليه دائرة متكاملة، وعندما أنهيتها رسمت بداخلها نجمة خماسية عملاقة.. عدت إلى الجسد المسجى على الفراش وحملته ومددته بداخل الدائرة.. عندما لمحته.. الكتاب.. الكتاب الذي أعطاه لي الشيخ.. كان موجودًا في الغرفة إلا

أنني لم أراه في بداية الأمر.. ما الذي يفعله هنا؟ لم أهتم كثيرًا، بل أسرعت إليه وأمسكته بيدي، ووجدت معه مجموعة من الأوراق البالية التي سقطت أرضًا فلم أهتم بها.. أمسكت الكتاب وبدأت أقرأ بهدوء:

"بحقك يا إلهنا يا رحيم يا غفّار

خلصنا.. خلصنا من مبعوثي الجحيم

خلصنا من رسل الشيطان وأبنائه

خلصنا بحق كل روح خلقتها

بحق كل روح خلقتها

بحق كل إنس وكل جان

خلصنا يا رحمن"..

لاحظت أن جسده يتفاعل مع التعاويذ ويتلوى ويتشنج من الألم، وتحول لونه للون الأزرق وبدأت تتبدل ملامحه وتهتز رأسه يمينًا ويسارًا بقوة، حتى ليُخيل لك أنه سيُقتلع من مكانه.. وقفت أراقبه وأنا أرى جسده يهتز بعنف.

وفجأة.. فتح عينيه وزأر بقوة وحشية ورفع يديه إلى أنيابه وقطع الحبل المربوط فيهما، وبضربة واحدة من مخالبه كان قد تخلص من رباط قدميه أيضًا.. ووقف بداخل الدائرة ينظر لي بحقد.. صرخ صرخة أخرى واشتعلت عيناه غضبًا.. تحولت هالة النيران التي تحيط به من اللون الأزرق للون الأحمر القاني.. وخرج من الدائرة تجاهي.. تسمرت مكاني وشلّ الرعب حركتي.. رأيت في عينيه أعتى علامات الغضب.. خرج من الدائرة بهدوء ومشى نحوي.. تراجعت للخلف.. أخذت أتراجع حتى اصطدمت بالحائط خلفي.. تساقط بعض الجير من الحائط إثر اصطدامي به كأنما يشاركني خوفي.. تحدث بدون أن يفتح فمه: "تريد قتلي يا إنسان؟! قتل نصف شيطان؟! أحالم أنت؟!"

كان الصوت يتردد في عقلي صدئًا أجشًا.. به حشرجة غريبة كأن النار تلتهم حنجرته.. كان صوته شبيهًا بصوت أبيه.. صوت يأتي من قلب الجحيم.. كأن الكتاب يناجيني: "اقرأ ولا تخشَ شيئًا.. لا تخشاه".

أمسكت الكتاب بيدين مرتعشتين وحاولت فتحه.. سقط الكتاب من يدي في أسوأ توقيت ممكن.. حاولت تمالك أعصابي وأنا أنحني لأحضره، وعندما اعتدلت وجدته أمامي.. للحظة عابرة شعرت بالفزع يجتاحني.. كل ذرة في جسدي وروحي انتفضت للحظات وأنا أشعر بأنفاسه الساخنة على وجهي وملامحه القبيحة تتأملني في غضب، ورائحة كريهة تسد أنفاسي.. دمعت عيناي بشدة، فنظرت للكتاب بسرعة وبدأت أقرأ نفس التعاويذ التي استخدمتها سابقًا:

"بحق أرواح الملائكة

أن ائتوا إليّ وخلصوني

من أنصاف الشياطين

وأبنـاء الجحيـم

ورســل مبعوثة من نار

أن خلصوني منه وأعيدوه

إلى مثـواه ومرتعـه

بحق الروح الطيبـة

أن ائتني يا ملاك الخلاص

خلصــني منــه

و أعــده إلى أبيـه

بارنــوخ الشيطـان

فاجمعه بأبيه في الجحيم".

لمحت ورقة من الأرض ترتفع ببطء ثم تندفع بقوة حتى جسده وتمسه.. التفت للحظة ينظر لها، قبل أن أراه يتألم كمن مسته نار مستعرة من قلب الجحيم.. عرفت أن الورقة التي طارت بها التعويذة التي قرأتها.. بدأت أفهم ديناميكية عمل الكتاب ولِمَ لم أستطع قتل ابن الشيطان هناك.. قلبت الصفحة وقرأت مرة أخرى وهو يكافح لتخليص نفسه من الورقة التي التصقت به لتحرقه.. تصاعدت رائحة الشواء لتملأ المكان:

"بحق كل جميل وكل صافٍ

بحق كل وديع وكل هادئ

أن خلصونـــــي

خلصوني من ابن الجحيم

و إلى جحيمه أعـيدوه

خلصـوا الأرض من شروره

واجمعوه بأبيه في الجحيم".

ورقة أخرى طارت والتصقت به بقوة.. سمعت زئيره قويًا.. خشيت أن يسمعنا أحد ما، إلا أنني تذكرت أنه يسكن وحيدًا في منطقة نائية.. كان يتعذب.. يحترق.. ينال جزاءه الطبيعي هو وكل بني جنسه.. أخذ يتراجع بخطواته المتعثرة وهو يكافح للوصول للورقتين، حتى وصل إلى الدائرة وأصبح في منتصفها تمامًا.. لن أُضيع المزيد من الوقت، واستمررت بالقراءة

" لقد أحضرتـــه

وفتحت له البوابـة

فابعثوا بمندوبكم يأخذه منا

بحق كل روح وكل جـان

وكل شيطان في النار فانٍ".

إلى هنا انتهت تلك الورقة ولكن للتعويذة بقية.. قلبت الصفحة لأقرأ باقي التعويذة:

"أن احرقوه واقتلوه".

احرقوه واقتلوه!!! هناك شيء ما خاطئ حدث.. اعتقدت أن التعويذة لإعادته للجحيم مرة أخرى.. نظرت له ورأيته يتلوى بعنف وتجحظ

عيناه ويزرق جسده وتنفر عروقه بقوة شديدة، وعضلاته تتورم حتى تكاد تنفجر وهو يقول:

"سـ.. أ.. نـ. تـ. قـ.. م"..

انتفخ جسده على نحو بشع للغاية، قبل أن يسكن تمامًا للحظات.. تلاقت عيناه المتورمتان المحتقنتان بعينيّ قبل أن ينفجر تمامًا.. ملأ الدم الحوائط.. تعلقت بقاياه على الكرسي وعلى حلق الباب.. تدحرج الرأس حتى وصل أسفل قدميّ.. مسحت دماءه من على وجهي ونظرت إلى الكتاب مرة أخرى محاولاً أن أفهم ما حدث.. اتضح أنني قلبت ورقتان بدلاً من ورقة واحدة، وبالتالي قرأت عليه أنصاف تعويذتين مما أدى لهذا الخطأ.. شعرت أن الكتاب يناجيني ليخبرني أنني أخطأت خطأ فادحًا ولم أكن قدر المسؤولية الملقاة على عاتقي، والشيطان لن يغفر لي أبدًا هذا الخطأ.. أُصبت بالتوتر الحاد وخرجت من الغرفة وأغلقت بابها خلفي.. جلست على كرسي في الصالة الفسيحة ألتقط أنفاسي وأُهدئ من روعي قليلاً.. سآتي غدًا لأنظف تلك الفوضى ولكن الآن يجب أن أسـ...

قطع حبل أفكاري صوت مفتاح يدور في قفل باب الشقة.. راقبت باب الشقة يُفتح ببطء قبل أن أتبين على الباب شيطان آخر ينظر لي بعينين من جحيم

(٣٠)

تلاقت أعيننا في تحدٍ سافر للحظات قبل أن أقرر أن تحديه لن يضيف لي شيئًا.. من الأفضل أن أطمئنه بابتسامة حانية.. ارتبكت للحظة وأنا أبتسم ابتسامة جانبية وهو لا يزال ينظر لي بقوة.. عيناه تجريان على ملابسي قبل أن تشتعلا غضبًا.. نظرت لملابسي بطرف عيني فوجدتها مليئة بالدماء.. يبدو أنه فهم أنها دماء أخيه.. حاولت أن أتحرك إلا أن إرهاقي وارتباكي جعلاه أسرع مني.. وقف أمامي قريبًا جدًا مني، أكاد أشعر بأنفاسه الساخنة تلفحني.. لا يزال يحافظ على هيئة البشرية وإن كنت أرى حقيقته.. تراجعت للخلف في خطوات بطيئة وهو يحدق في عينيّ بقوة.. أكاد لا أستطيع أن أرى غيرهما.. شعرت أنه ينومني مغناطيسيًا.. هززت رأسي في قوة وأنا أحاول ألا أدخل بقدمي لفخه.. استمر تراجعي للخلف بقوة.. كان هدفي أن أصل للمطرقة الصغيرة الملقاة على الأرض.. أرجو ألا يكون مثل أبيه يقرأ الأفكار.. استمررت في تراجعي بخطوات بطيئة حتى وصلت إليها وتوقفت بجوارها.. انتهى الآن الجزء السهل.. يبقى الجزء الأصعب.. أن أنحني لألتقطها بسرعة قبل أن يفهم ما سيحدث.. الأمر الذي أثار الخوف والحيرة في قلبي كان ثباته بابتسامة نارية على وجهه، وكأن ما أفعله لا يهمه في شيء.. انحنيت ببطء شديد على المطرقة قبل أن يتحرك بغتة.. حقًا لم يتحرك، لقد أشار بيديه في اتجاهين مختلفين.. طارت المطرقة لركن الغرفة الشرقي لتصطدم بالحائط في عنف بالغ ودوي هائل،

بينما طار جسدي كاللعبة الصغيرة.. طرت كأنني لا أزن شيئًا.. كأنني لعبة صغيرة في يد طفل شقي.. طرت لأصطدم بالحائط وبأن جسدي ألمًا.. كنت أشعر أن صخرة تزن طنًا سقطت عليّ من علٍ.. طار الكتاب من يدي لحظة اصطدامي بالحائط.. من بين آلامي راقبته يزحف على الأرض بقوة لينزلق تحت المنضدة.. حولت عينيّ في سرعة لأرى هل رأى ابن الشيطان الكتاب.. تنهدت ارتياحًا من بين آلامي عندما رأيته يثبت نظراته عليّ ولم يهتم بالكتاب.. يجب ألا يقع الكتاب في يديه لأي سبب من الأسباب.. بدأ يقترب بشدة وملامحه الشيطانية تتبدل وجسده يتبدل لملامح أكثر شرًا.. كنت أراقبه بعينين واهنتين وبغير تركيز بسبب الآلام الرهيبة التي غزت جسدي بأكمله.. بدأ فراء أسود حالك يغزو جسده بأكمله ليحوله إلى ما يشبه الحيوان.. جسده بأكمله مغطى به إلا من بقع صلعاء يلتمع عليها الضوء بشدة.. بضع أجزاء من لحمه تساقطت لتظهر من تحتها عظام صفراء بالية ينخرها السوس والعفن.. الديدان تلعب وتمرح بأحشائه البالية.. ملامح وجهه أكثر بشاعة.. كان أنفه أفطس كبيرًا يرتعش بشدة كلما تنفس.. عيناه اللتان احمرتا بشدة وتبدلت قزحيته من اللون الأسود للون الأحمر القاني.. زبد أبيض قذر يسيل من بين شدقيه ليتساقط أرضًا في مظهر مقزز.. يداه وقدماه استطالت أظافرهما القذرة السوداء لتتحول إلى ما يشبه مخالب الحيوانات المفترسة.. ضحكات شيطانية بدأت تتردد من حولي بقوة ولا تتوقف.. شعور بالخوف يخالجني.. ارتعش جسدي وأنا أتذكر السيد وتابعه.. صوت بكاء وآهات من حولي لم أحتمله.. شعور الحزن

بات أقوى.. أتذكر أمي وهي تموت.. أنات ألم وصرخات قوية.. شعور الألم يسيطر عليّ.. أتذكر كل صراعاتي مع المرض اللعين.. ضحكات أطفال صغار وقهقهة.. أشعر الآن أنني فرح للغاية.. أتذكر فرحتي بالتخلص من لعنة مرضي للأبد.. كل هذه الأحاسيس والمشاعر تبدلت عليّ في زمن قليل جدًا.. في أقل من دقيقة كنت قد اختبرت جميع تلك المشاعر وتذكرت معها أحداثًا من حياتي تناسبها.. فهمت الآن أنه يتحكم في ذهني.. يدس لي مؤشرًا ويندفع عقلي وراءه.. آهات للألم وبكاء للحزن.. كان يعبث بعقلي محاولاً أن يجعلني أجن.. يجب أن أقاوم وألا أستسلم.. مددت يدي وغطيت أذني إلا أن الأصوات كانت تتردد بقوة وبصوت أعلى بداخل رأسي.. أغلقت عينيّ أيضًا وحاولت التركيز.. لا أريد أن أفقد عقلي الآن.. لا.. لن أجن.. لن أفقد تماسكي هنا.. توقفت الأصوات.. نظرت إليه ووجدته ينحني عليّ وينظر في عينيّ بسخرية وهو يُمسك بقبضته حفنة من الغبار، الذي يتسلل من بين أصابعه على هيئة خيط رملي طويل.. بصوت شيطاني يتردد بقوة في ثنايا عقلي الذي أشعر به يحترق في الجحيم يردد كلماته: "سأطحن عظامك وأخلطها مع الغبار ثم أمزجها مع دمائك لكي أصنع لنفسي كعكة عيد الميلاد".

كلمات يحاول بها زعزعة قوتي وهدم استقراري النفسي.. مازلت أخوض حربًا شعواء مع نفسي لكي لا أفقد تماسكي.. تحاملت على نفسي واستندت إلى الحائط المهدم ووقفت على قدمين متهالكتين.. وعيي يئن مني وأنا أتماسك.. أعرف أن نهايتي مع فقداني لوعيي

حتمية.. أشار إليّ بيده مرة أخرى فأحسست بشيء يجذبني إليه.. توقفت أمامه مباشرة، رأيته يحدثني بكلمات لا أفهمها وأحسست بأنفاسه الحارقة على وجهي.. وعيي يتسرب مني ببطء.. أحاول أن أتماسـ...

*****

عاد إليّ وعيي ببطء شديد.. لمحته يعطيني ظهره ويمسك الكتاب بيده يتصفحه.. حاولت التحرك إلا أنني فوجئت أنني مقيد بشدة إلى كرسي متهالك.. حركتي سببت صريرًا.. الكرسي لم يتحمل الحركة المفاجئة فأنّ ألمًا.. التفت خلفه ونظر لي بعينيه الحمراوين وهو يبتسم ابتسامة تكشف عن أسنان صفراء عفنة.. نظر إلى الحوائط نظرة ذات مغزى.. تأملت الحوائط بعينيّ.. كانت عليها رسومات سيريالية بالدماء.. أحدها كان وحشًا ضخمًا يخنق امرأة بوسادة بغضب شديد.. الثاني كان يحمل صورتين متجاورتين، إحداهما صورة السيد بشكله الحقيقي والأخرى بشكل الصبي المخيط مقطع الأوصال.. الثالث يحمل صورة التابع وهو يقف مبتسمًا وعلامات الشرّ على وجهه، بينما الرابع كان يصوّره يقف منتصرًا على جثة لم أحتج أن أفكر لأعرف جثة من.. من الجلي أنها جثتي بعد انتصاره عليّ.. تردد صوته العفن بكلمات مقتضبة في ثنايا عقلي: "إضافة صغيرة أرجو أن تروقك".

حاولت أن أرد عليه إلا أنه قاطعني قائلاً: "أريدك أن تُوفر طاقتك فأنا سأتلذذ بعذابك قبل أن أنهي حياتك وأبعث بك إلى جحيم أبي الذي يتوق للأخذ بالثأر، فأنت قد قتلت أكبر أبنائه".

أمسك الكتاب وبدأ يقرأ التعاويذ بشكل عكسي.. كانت تشبه تراتيل الجحيم.. أحسست بنيران تشتعل في جسدي.. هناك ألف مطرقة تضرب جسدي بينما مئات الأسواط تنهال عليّ بجلدات من ألم صافٍ..تساءلت حينها: "هل حانت نهايتي أخيرًا؟"

(٣١)

أغمضت عينيّ في استسلام وأنا أشعر بالآلام تغزو جسدي بقوة.. كأن جسدي يُسحق ويُحرق ويُكسّر في نفس اللحظة.. عضضت على شفتي السفلى محاولاً التماسك وعدم إصدار أنّة ألم واحدة، كي لا أحقق له مبتغاه.. شعرت بسائل دافئ لزج يسيل على ذقني.. يبدو أنني جرحت شفتي من شدة الضغط عليها.. فتحت عينيّ بصعوبة وأنا أراقبه، كان يقرأ بتتابع وبصوت عالٍ.. عظامي تتكسر أو هكذا أشعر.. نظرت للكتاب في يده، كنت أسمع صوته يناجيني بكلمة واحدة: "هيا.. هيا.. هيا.. هيا".

لا أعلم ماذا أفعل ولا أين أذهب ولا أعلم أي شيء، إلا أن دافعًا خفيًا بداخلي أشعرني بالاطمئنان إلى الكتاب وأنه سينقذني.. أغمضت عينيّ بقوة وركزت في أمر الكتاب، وشعرت بالفعل أنني منطلق.. شعرت أنني حرّ.. بلا قيود أو دوافع.. فتحت عينيّ وأنا أتوقع أن أجده لا يزال يقرأ.. إلا أن ما واجهني عندما فتحت عينيّ كان مدهشًا للغاية.. ابتسامة رسمتها تلقائيًا على وجهي وأنا أتأمل المكان من حولي.. شفتي لم تؤلمني مع الابتسامة وهو أمر غريب.. مددت يدي برفق ولمست شفتي لأجدها سليمة بلا أي جروح.. ما معنى هذا؟! كأنني أقف في قطعة من العدم.. أو أقف في قلب اللامكان.. أشعر أنني أقف على سحابة تطير في السماء.. اللون الأبيض كان المسيطر الأوحد في هذا المكان.. السماء من

حولي زرقاء صافية بلا سحب ولا شوائب.. نظرت للأرض فوجدتها بيضاء خالصة.. جربت أن أمشي ببطء شديد فوجدت أنني أمشي على شيء ناعم طري غير صلب، فلا أشعر بارتداد يحدث نتيجة اصطدام قدميّ بالأرض.. الأمر الآخر أن مع كل خطوة ذرات دخانية بيضاء ترتعش على الأرض ثم تهدأ.. يبدو الأمر كما لو أنك تمشي في بركة من الدخان الأبيض الناعم.. مصحوبًا بموسيقى عذبة تُريح الأعصاب وتُرخي الجسد.. الجو العام بأكمله يُشعرني بالنعاس.. خاطرة غريبة قفزت إلى ذهني لأقف مكاني وأنا أفكر فيها.. هل أنا مت؟! هل هذه الجنة أم أن هذه هلاوس ما قبل الموت؟ هل هذه المحطة التي ننتظر بها لكي نتوزع بين الجنة والجحيم؟ حسنًا، أنا أعرف مصيري القادم ولا أحتاج للانتظار هنا.. شعرت بداخلي أيضًا شيئًا يدفع تلك الخاطرة بعيدًا عن تفكيري.. المكان هنا مريح للنفس فعلاً.. قررت أن أمضي بعض الوقت في اكتشافه.. مشيت قليلاً وأنا أتلفت حولي حتى وجدت حديقة غنّاء تقف بشموخ وسط هذا المكان المحبب.. دخلت من بوابتها الخشبية التي تمتلئ بأشكال جميلة محفورة على طولها.. تأملت السور المتوسط، فلا هو قصير يسمح لأي شيء بالقفز بداخلها، ولا هو طويل فيمنع المرء من أن يُملي عينيه بجمال الموجودات بداخلها.. رأيت زهورًا وأشجارًا كنت أعرفها جيدًا.. زهورًا وأشجارًا لم أرها منذ زمن.. زهورًا وأشجارًا لم أكن أعلم أنها موجودة من قبل.. في العموم هذه قطعة من الجنة تقف بعزة وكرامة وسط اللامكان.. رأيت شجرة ترتفع لتنظر إلى السماء في فخر غريب، فمشيت إليها وأنا أحاول أن تمتلئ

نفسي بكل هذا الجمال.. جلست بجوار الشجرة وأسندت ظهري لجذعها الحاني.. شعرت براحة تتسلل إليّ فأغمضت عيني وأخذت أستمع للموسيقى الهادئة.. شعرت بحركة خافتة من خلفي.. انتفض جسدي واعتدلت وأنا أقفز لأقف على قدميّ متخذًا وضعًا قتاليًا.. وجدت نفسي أقف أمام شيخ هادئ.. كهل إن أردت الدقة، عمره من عمر الكون.. يشبه كثيرًا الشيخ العزيز بالله معلمي ومنقذي.. شعره طويل أملس يكاد يصل إلى خصره، ولحيته طويلة منظمة مهندمة، ويرتدي جلبابًا أبيض اللون تنبعث منه رائحة المسك الطيبة.. يمسك بيده غصن شجرة منتظم يستعمله كعصا يستند عليها بين خطواته القليلة التي يمشيها.. ابتسم مطمئنًا وهو يقول: "لا تخشَ شيئًا يا بني".

لقد سمعت هذا الصوت من قبل.. أنا متأكد من هذا.. سألته وأنا لا أزال محافظًا على وقفتي المتحفزة: "من أنت؟"

"أنا الحكيم أبو الطيب.. كاتب الكتاب والأول الذي بدأ في مبارزة أبناء الشيطان".

"إذن أنت الذي كنت تناجيني طوال الوقت وأسمع صوتك؟"

"نعم أنا يا بني!! اجلس واسترح واسمعني جيدًا".

جلست مرة أخرى واستندت على جذع الشجرة مرة أخرى وأطلقت لخيالي العنان، وأنا أشعر بالاطمئنان يغزو مشاعري مرة أخرى وأنا

أستمع إلى صوته الدافئ وهو يتكلم: "الشيطان الذي يحاول التغلب عليك هو (مارينوخ)، وهو أقوى أبناء الشيطان وأكثرهم تمرسًا في السحر بكامل أنواعه.. لم تكن لتستطيع التغلب عليه أبدًا.. أنت مازلت مبتدئًا وليس لديك القدرة الكافية ولا القوة اللازمة بعد لردعه.. مازلت تحتاج إلى الكثير من الوقت.. أيضًا تحتاج لحفظ التعاويذ حتى لا تعتمد على الكتاب فتُخطئ كما أخطأت من قبل.. اسمعني جيدًا يا بني.. أنت أملنا هذه المرة لتُخلصنا من شرورهم، ولكن قدرك سيجعلك جنديًا مجهولاً.. لن يكرمك أحد لأنه لا أحد يعرف الدور المحوري الذي تلعبه في تلك الخطة.. يجب أن تظلّ هنا لتقرأ وتحفظ وتفهم، ثم تعود لزمنك الطبيعي لتقضي على الابنين الأخيرين، ولا أنصحك بالعودة لمارينوخ ثانية.. سيجن غضبًا لأنك اختفيت من أمامه بعد أن كاد يبعث بك لأبيه في خرائب الجحيم.. أتركه للعزيز، فهو ما يزال يعيش في ذلك الزمان وسيقتله".

"أخاف ألا أقدر على قتل الأخيرين؟"

"ستقدر وستتغلب عليهما".

"كيف تعرف؟"

ابتسم ابتسامة خافتة وأكمل حديثه: "اقرأ الكتاب جيدًا وافهمه واحفظه وتعايش معه.. أريدك أن تكتب نسخة أخرى من الكتاب بداخلك حتى لا يتكرر هذا الأمر مرة أخرى، وقبل أن تموت اكتبه مرة

أخرى ليكون سراجًا ينير درب من سيأتي بعدك.. نحن لن نتقاعد وهم لن يكتفوا.. كل منا في مهمة ينفذها حتى تقوم الساعة.. إنه قدرنا أن نخلص الدنيا منهم وهم قدرهم أن يأتوا بالمزيد من الشرور إلينا.. ستعود مرة أخرى.. أنت الآن تعرف المطلوب منك وتعرف كيف ستفعله.. اقضِ عليهما ولا تفكر في العودة لمارينوخ.. لقد حذرتك.. سأخبرك كل شيء في حينه وسأخبرك كيف ستفعل البقية، ولا تخف إن الله معنا".

جلست وأنا أمسك نسخة الكتاب التي أعطاها لي.. لا أعلم كم من الوقت مرّ وأنا هنا.. المهم أنني حفظت الكتاب عن ظهر قلب.. لا أدري هل سقطت غافيًا أم حدث شيء آخر، ولكنني عندما فتحت عينيّ وجدتني ساقطًا على الأرض في شقة الشيخ العزيز بالله وفي زمني، ووجدت الشيطانين الأخيرين يوليان ظهريهما لي وهما يتناقشان، وفجأة نظر لي حسين وهو لا يزال محتفظًا بصورته الآدمية، قبل أن يُبرز أسنانًا غير آدمية وهو يزأر بقوة.

(٣٢)

مع زئيره بصوت عالٍ انتفض جسدي هلعًا.. في أقل من جزء من الثانية كنت قد أمسكت بالكرسي الموضوع بالغرفة ورفعته عاليًا، قبل أن أهوي به على رأس التابع أو ابن الشيطان الآخر، ليسقط فاقدًا لوعيه من أثر المفاجأة.. يجب عليّ الآن أن أعمل سريعًا إذا أردت النجاة من هذا الفخ.. كان حسين يحاول الاقتراب مني في قوة.. وأنا أتفاداه وأتراجع بخطوات سريعة للخلف.. رأيته يستجمع قوته قبل أن يجري ناحيتي بسرعة شديدة.. حاولت تفاديه لكي يصطدم بالحائط ليفقد وعيه.. في آخر لحظة ممكنة تدحرجت بعيدًا عن الحائط وراقبت اندفاعه.. توقعت أن يخرّ فاقدًا للوعي أو أن تصيبه الصدمة بالدوار، إلا أن الذي حدث كان مختلفًا تمامًا عما كنت أتخيل.. بمجرد اقترابه من الحائط وابتعادي عنه.. ظهرت ملامح الصدمة جلية على وجهه للحظة.. لحظة واحدة فقط، وبعدها استعاد قوته وتركيزه وضغط بقدمه على الحائط لأعلى وهو يدفع جسده للأسفل ليسير خطوة على الحائط قبل أن ينقلب بجسده للخلف في رشاقة ليقف وهو يوليني ظهره، قبل أن يلتفت لي بهدوء وصمت أثار الرعب في نفسي.. يجب أن أحافظ على سرعة القتال لكي لا يتسنى له تغيير صورته الآدمية.. لو تحوّل للصورة الشيطانية سيحسم اللقاء.. لا حلّ آخر أمامي.. اندفع يجري بقوة وهو ينوي ألا يهدر هجومه هذه المرة أيضًا.. تلفّتُ حولي بسرعة.. لا مفر.. يبدو أنه سيمسك بي هذه المرة، إلا أنني وجدت

سبيل النجاة أمام عينيّ.. صرخت بقوة: لاااا.. لا تتدخل أيها الشيخ الطيب.. فلتظل خارج القتال".

نظر خلفه لثانية واحدة ليرى من أحدّث.. في الواقع لم يكن هناك شخص.. كانت خدعة ووقع فيها.. أمسكت برأسه قبل أن ينظر لي مرة أخرى ودفعت به بقوة ناحية الحائط.. شُجّ رأسه بعنف من أثر الاصطدام.. وسالت دماؤه على وجهه بعنف، لتغطي إحدى عينيه وتضفي عليه مظهرًا شيطانيًا بثّ في قلبي الرعب أولاً قبل أن يغضبه.. تراجع للخلف في سرعة لكي يختبر جراحه ليعرف لأي مدى أصيب.. استغللت الفرصة وانحنيت على قطعة خشبية ملقاة أرضًا من شظايا الكرسي.. أمسكتها بيدي واتخذت وضعًا قتاليًا.. هذه المرة كنت أتفوق وأمتلك ميزة قتالية وهي أن إحدي عينيه الآن مغطاة بالدماء، فلا يستطيع أن يرى منها جيدًا.. تلاقت عينانا وكان التحدي لغة العيون، والخوف عنوان ضربات القلوب.. اندفعت نحوه وأنا أصرخ بقوة مشجعًا نفسي، إلا أنه في اللحظة الأخيرة ابتعد عن طريقي فاندفعت إلى اللاشيء.. كدت أتعثر ويختل توازني، إلا أن معرفتي يقينًا بأن من سيسقط أرضًا أولاً هو الخاسر بغض النظر عن أي شيء آخر؛ جعلتني أتدارك الموقف وأستعيد توازني، لأقف وأنا أنظر له من خلف كتفي بتحدٍ سافر، قبل أن أنظر إليه وأواجهه.. كنت أقف الآن فوق جسد شقيقه الفاقد الوعي.. لا أدري أهو إمعان في التأكد أم إمعان في استفزازه، انحنيت ورفعت القطعة الخشبية لأعلى ما يمكن أن تصل إليه يدي وهويت بها على رأسه، فأصدر خوارًا خافتًا قبل أن يستكمل

رحلته في عالم اللاوعي.. شعرت بغضبه يزداد وكان هذا أحد مطالبي، لأن العلاقة بين الغضب والتركيز علاقة عكسية.. صرخ بقوة وهو يندفع ناحيتي، وقبل أن أتفاداه انحنى أرضًا ليجري على يديه وقدميه كالذئب.. فقدت تركيزي للحظة قبل أن يعتدل مرة أخرى ويُلقي بجسده تجاهي.. لقد كانت خدعة منه ليُفقدني تركيزي أيضًا، وأنا كالغر الساذج سقطت في فخه.. حاولت أن أتفادى هجومه إلا أنه كان أسرع، فأمسك بقدمي قبل أن يعضها بقوة بين أسنانه ويقضم قطعة من لحمها، لتمتلئ قدمي بالدماء.. سحبت قدمي من بين أنيابه بسرعة، ووقفت وأنا أشعر بألم لا يُحتمل.. أعماني الغضب فكشّرت عن أنيابي واتجهت إليه بخطوات غاضبة وأنا أزمجر بقوة.. كان هدفي واضحًا، وكان هو سيسقط في فخي.. تراجع خطوة واحدة فقط وكانت هي كل ما أحتاجها.. تعثرت قدمه بجثة أخيه فسقط أرضًا على ظهره، وقبل أن يفهم ما يحدث كنت أجثم فوقه وبيدي القطعة الخشبية.. أخذت أضربه بالعصا على رأسه حتى امتلأت العصا بالدماء وغطت وجهي ويديّ، عندما سمعت صوت الحكيم يناجيني: "كفى.. لو قتلت صورته الآدمية فسينتقل ابن الشيطان لجسد آخر، ولا نعلم كم من الوقت أو المجهود الذي ستبذله لكي تعثر عليه.. قيدهما الآن".

قيدتهما وأسجيت الجسدين داخل الدائرة وربطتهما جيدًا، وحرصت هذه المرة أن أربط اليدين خلف الجسد وليس أمامه.. أمسكت بالكتاب وأنا أتحامل لكي أستطيع الوقوف على قدمي المصابة، وفتحت الكتاب وبدأت أقرأ بصوت جهوري عالٍ:

"أيا مالك السموات والأرض

أيا خالق الإنس والجان

بحق كل من خلقت

وبحق كل روح قبضت

آخر سلالة الشياطين في الأرض

فافتح لي بابًا وانقلهما لأبيهما

الشيطان الملعون لعنة أبدية

فخلصنا منهم ومن شرورهم

وارحمنا منهم ولا تبعثهم مرة أخرى

فافتح لنا البوابة وخذهما"

تلوى الجسدان أمامي للحظات قبل أن يتغير لونهما للأزرق.. اختفي كلاهما من أمامي وتبخرا.. تركت جسدي يسقط أرضًا.. زحفت على الأرض وقدمي المصابة من خلفي ترسم خطًا أحمر من الدماء.. لقد خلصت العالم من شرور الشيطان وأولاده.. لم يعد سواه، ولكن كيف أتخلص منه وأنا عجزت عن التخلص من أحد أبنائه.. كان السؤال

يشغل تفكيري.. ولكن سأتركه لوقته.. يجب عليّ أن أخرج من هذه الغرفة الآن.. وصلت لباب الغرفة وطرقت بما تبقى من قوة في جسدي.. طرقت حتى فتح الشيخ الباب.. أسندني وسألني عن حسين، فقصصت له كل ما حدث.. فغر فاه في ذهول وهو لا يصدق أن ابنه الروحي وتلميذه كان يخدعه طوال هذه المدة.. حملني إلى الفراش وأسجى جسدي عليه وتركني أستسلم للتعب والإرهاق وأنام.. نمت وأنا لا أعرف ما الخطوة التالية.

(٣٣)

فتحت عينيّ بعد نوم طويل وأحلام كثيرة أحداثها متشابكة، حتى لا أكاد أعرف أهو حلم واحد طويل متشابك الأحداث أم مجموعة أحلام متشابكة.. فتحت عينيّ ببطء لأجد الشيخ العزيز بالله يجلس بجواري.. عندما رآني أفتح عينيّ وأعود لأرض الواقع ابتسم برقة، وهو ينظر في عينيّ بعينيه الخضراوين اللتين تطمئنناني.. ابتسمت له بإرهاق وحاولت أن أعتدل على الفراش، إلا أن الألم كان لا يحتمل، فهربت من بين شفتيّ أنّة ألم.. ربّت على كتفي برقة قبل أن يساعدني لأرقد مرة أخرى على الفراش.. نظرت لقدمي فوجدتها مضمدة باهتمام بالغ.. نظرت له وابتسمت ابتسامة شكر وأنا أسأله: "هل أنا نائم منذ حين؟"

"لا.. أنت لم تتعد الست ساعات يا ولدي.. لقد نظفت جراحك وضمدتها جيدًا، فلا تقلق".

"لست قلقًا، فأنا أثق بك.. ولكن أتعلم ما الذي يحيرني؟"

اتسعت ابتسامتة وهو يقول: "حسين؟"

" نعم.. حسين.. كيف كان تابعك من أبناء الشيطان وأنت لا تعرف؟"

"يا ولدي.. كلنا بني بشر، وبني البشر خطّائين.. ليس منا من هو معصوم".

"أعرف هذا جيدًا، ولكنني تعجبت وأنا أقاتله.. لقد فكرت في هذا الأمر كثيرًا".

"ما الذي دار في الداخل؟"

قصصت عليه كل ما دار بالداخل ورحلتي إلى الثلاثينات ومقابلتي لابن الشيطان الأول، ثم صراعي مع مارينوخ الذي كاد ينتهي بأسوأ النتائج لولا الحكيم ابن الطيب الذي أنقذني من بين براثنه، وأخبرني كل شيء وعلمني أشياء كثيرة، مرورًا بصراعي مع حسين وانتصاري عليه بعد أن أصابني.. عند جزء حسين تجهم وجهه لأول مرة منذ عرفته إلى أن انتهيت من حكايتي.. خرج من الغرفة قبل أن يدخل بالخريطة ويغير مكان دبوسين صغيرين على واجهتها، ونظر لها وهزّ رأسه برضا، قبل أن يبتعد عنها في هدوء ويريني ما تكوّن عليها.. تأملتها للحظات قبل أن أفهم ما يقصد.. الدبابيس المكوّنة لأماكن أبناء الشيطان العشرين تُكوّن ما يشبه الدائرة، ونجمة مرسومة بداخلها تشبه تمامًا تلك التي نقيم فيها الطقوس السحرية للتخلص منهم.. ابتسمت بفهم وهززت رأسي، فجلس بجواري مرة أخرى بهدوء وهو يحرص ألا يهتز الفراش كي لا تؤلمني قدمي.. قال وابتسامته تتسع: "إذن أنت قابلته؟!"

"نعم، وتكلمت معه وتعلمت منه ونصحني نصيحة".

"أعرفها، ولكن هل ستنفذها؟"

"سأنفذها، ولكن سأقضي على السيد في البداية".

"لن تستطع يا ولدي.. أنت لم تقدر على أحد أقوى أبنائه.. هل تظن أنك ستقضي عليه بقوته وعلمه الضاري وخبرته؟"

"لا أدري.. ولكن يجب أن أتخلص من لعنة المرض للأبد وأخلص الدنيا من شروره".

"أعرف، وهناك فكرة ما تُلحّ عليّ سأناقشها معك، ولكن لتتبع نصيحته أولاً".

"حسنًا.. هيا بنا".

اعتدلت على الفراش وقاومت الألم الذي اجتاح جسدي بالكامل، واستندت بيديّ على كتفه ومشينا سويًا حتى وصلنا للمطبخ.. أشعل الموقد وأخرجت الكتاب من حقيبته الخيشية، وتأملته للحظات تذكرت فيها كل الأحداث التي مرّت عليّ وهو معي.. كل الأشياء التي أنقذني منها وكل المخاطر التي حماني إياها.. دمعة حنين تسللت من عيني، وشعرت بيد الشيخ تقبض على كتفي بقوة مشجعًا لي.. ألقيت بالكتاب فوق النار وتابعته يتآكل وتسّود أطرافه وهي تنثني.. أكثر من مرة كدت أمد يدي لأنتزعه من النيران، إلا أنني أتراجع في اللحظات الأخيرة.. انتهى الأمر.. أكلته النيران تمامًا وخمدت.. آخر سحابة دخان متصاعدة من الأوراق المحروقة كانت تشبه شيخًا يبتسم.. لا أعلم

أرأيت هذا الأمر فعلاً أم أنه محض خيال صوّره لي عقلي المرهق.. تجاهلت الأمر تمامًا ونحن نعود للغرفة.. جلست على طرف الفراش وجلس بجواري وهو يبتسم لي: "أتريد أن ترتاح قليلاً ثم تسمع خطتي؟"

"أفضل أن أسمع الخطة حالاً لأنني سأبدأ في تنفيذها في أسرع وقت ممكن".

"بهذه السرعة؟ أنت لم تسمعها بعد.. فلتفترض أنها لم تعجبك؟"

"أنا أثق بك تمامًا وأثق بأفكارك".

"فلتسمعني جيدًا.. بدأت مشكلتك كلها عند مقتل أبيك وانتقام أمك منه، وبالتالي أصابك المرض اللعين.. استمرّ المرض ينال منك وأنت مستسلم له تمامًا، وعندما تملك منك لم يعد أمامك سوى اللجوء للجان ليخلصوك منه.. إما هذا وإما الموت.. وحضر الجان، وساعدته أنت في استرجاع أكبر أبنائه وأحبهم إلى قلبه.. وهو الآن حر طليق سيجد آخرين ضعاف النفوس ليساعدوه، ولا أنا ولا أنت نملك القوة الكافية لمجابهته منفردًا، فما بالك لو استقوى بأحد أبنائه؟"

"سيكون الأمر مستحيلاً".

"بالفعل.. هناك نقطة ضعف ستقضي عليه تمامًا، والطريف في الأمر أنه أعطاك وسيلة القضاء عليه بنفسه!!"

"ما هي تلك الوسيلة؟"

"هناك شيء ما يسمى تأثير الفراشة.. ببساطة شديدة إذا غيرت أمرًا ما في الماضي فكل ما ترتب عليه سيُلغى.. وبالتالي سيتغير مجرى أحداث التاريخ بأكمله.. هل فهمتني؟"

"بدأت أفهمك".

"تخيل معي مجرى الأحداث لو لم تقتل أمك أباك".

"حسنًا، لن تنتقم منه.. لن يصيبني المرض.. لن أقتلها لأنتقم.. لن أريد الجان في شيء".

"بالضبط.. أي إنه لن يأتي من الأساس، وبالتالي كل الأحداث التي تبعت قدومه كأن لم تكن".

"فهمت، ولكن كيف سنغير الماضي؟"

ابتسم وهو يتمهل في الحديث: "كيف كنت تتنقل بين مهماته يا ولدي؟"

"عن طريق القوة التي منحني إياها، كنت أستطيع أن أسافر عبر الزمن.. فهمت".

"لقد منحك وسيلة للقضاء عليه".

سبحت مسافرًا فى أفكار أغرقتني.. ابتسمت فى هدوء وكأنها بالفعل خطة محكمة.. ظهرت علامات الرضا على وجهه وهو يقول: "حسنًا ستفعل يا بني".

"سأنام الآن وعندما أستيقظ.. سأكتب قصتي كاملة، وسأتركها هنا للطبيب الذي أتت إليه أمي منذ حين وعرف مرضي وشخّصه.. طبيب نفسي يدعي شاكر، وسأترك له مهمة نقل القصة للناس كي يأخذوا حذرهم منه بعد ذلك، كي لا يتكرر الأمر الذي حدث معي أبدًا.. يجب أن يعرف العالم عن شروره وخططه القذرة لكي يتوقفوا عن مساعدته".

"قرار صائب يا ولدي".

نمت واستيقظت في صباح اليوم التالي لأكتب الأوراق التي تقرأها الآن.. أنت الآن وحدك تعلم قصتي كاملة.. لك مطلق الحرية لتصدقني أو لا تصدقني، ولكن الأمانة في عنقك ستؤلم ضميرك ليوم الدين.. إلى هنا تنتهي أوراقي وتنتهي معها حكايتي مع المرض وسيد الجان، لتبدأ حكاية جديدة تجري أحداثها في الماضي القريب.

النهـــاية

ما بعــد الأوراق

(١)

اختفيت من أمام الطبيب المسكين، الذي لن يفهم شيئًا حتى يقرأ الأوراق أو يسلمها للضابط ليقرأها هو.. كان تفكيري طوال رحلتي المؤلمة فيه وهل كان تصرفي صائبًا أم كان تصرفًا خاطئًا.. كنت أتعمد التفكير حتى لا أنتبه للألم الذي يصول ويجول في جسدي ويكاد يفقدني وعيي.. كل رحلة من رحلات السفر عبر الزمن كانت مؤلمة وتحمل معها آلامًا جديدة في كل مرة، وكأنها تكفير عن أخطائي التي ارتكبتها طوال حياتي.. انتهت رحلتي المؤلمة التي حرصت أن أكون مغلق العينين طوالها.. شعرت بجسدي يرتطم بالأرض بقوة معقولة إلا أنها آلمتني بشدة.. فتحت عينيّ ببطء وأنا أتأمل المكان من حولي.. كنت في غرفتي التي نشأت فيها.. كنت أشعر أنني غير متزن.. كلما حاولت الوقوف أو الحركة يصيبني دوار وأشعر بآلام في جسدي.. رفعت يدي أمام عينيّ لأتأملها قبل أن ترتسم ابتسامة على وجهي.. يد طفل لم يتعد العاشرة بعد من عمره.. وقفت وتحملت الألم ومشيت بتمهل إلى المرآة الصغيرة وتأملتني فيها.. تهت في ملامحي الصغيرة.. البراءة والطيبة والصدق مرسومة على ملامحي.. قفز إلى ذهني وجهي منذ ثلاثة أيام.. التجاعيد التي غزت ملامحي والإرهاق والتعب اللذان كانا سمة مميزة

لي.. بريق عينيّ الذي اختفى.. شعري الثائر المجنون الذي بدأ يظهر فيه بضع شعيرات بيضاء.. الهمّ والحزن اللذان كنت أشعر بهما طوال الوقت.. شتان الفارق بين الآن ووقتها.. كنت أريد أن أعيش هنا دائمًا.. بعيدًا عن سيد الجان وتابعيه وأبنائه ومرض الكورو وشهوته التي لا تنتهي.. هنا حيث يرعاني أب وأم ولا أحمل من هموم الدنيا شيئًا.. كان جسدي يؤلمني لأنني أتحرك بنفس السرعة وبنفس الحركات التي كنت أتحرك بها في جسدي القديم.. سأتمهل قليلاً حتى أعتاد على جسدي القديم.. كنت أشعر ببوادر الصراع من الخارج تزداد.. صوت الصراخ وصوت البكاء.. يبدو أنني عدت في الوقت المناسب.. يجب عليّ الآن أن أمنع الكارثة قبل وقوعها.. اقتربت من الباب وفتحته بهدوء.. تأملت المنظر من فتحة الباب الضيقة.. يقفان أمام بعضهما ويصرخان في آنٍ واحد.. لا أعتقد أن أحدهما يسمع الآخر.. في المرة الأولى انتظرت حتى قتلته.. هذه المرة لن أصبر.. خرجت من الغرفة دون أن يلاحظني أيهما.. وقفت أختبئ بجسدي الضئيل بجوار الأريكة الصغيرة وأنا أتابع نقاشهما المحتد.

"أنت طوال الوقت بالخارج ولا تأتي إلا للأكل أو للنوم.. هل تعتقد أنه فندق؟"

"أنا بالخارج لأعمل كي أعيلك أنتِ وصغيرك، الذي لم نرَ من ورائه إلا كل سوء!"

"وماذا تريد أنت من الصغير.. أن يعمل بدلاً منك؟"

"تريثي قليلاً حتى لا تقولي كلامًا تندمين عليه.. ثم ما موضوع الفندق هذا؟ أمن المفترض إن قضيت اليوم في العمل الا أعود لمنزلي؟"

اندفعت إلى وسطهما وجذبت أبي من قدم بنطاله بهدوء.. نظر لي بغلّ وعلى وجهه علامات الغضب.. إلا أن ابتسامتي ألانت ملامحه قليلاً.. شبح ابتسامة حنون تلاعب للحظات على شفتيه، قبل أن يقول لي بصوت هادئ: "ماذا تفعل هنا؟! لماذا خرجت من غرفتك أيها الصغير".

"هلا حملتني يا أبي؟"

حملني أبي على يده حتى كدت أبارزهما طولاً.. ابتسمت له ولأمي قبل أن أركز في كلماتي المنتقاة، لكي تبدو كأنها تخرج من طفل في العاشرة.. نظرت له وطبعت قبلة على جبينه قبل أن أقول: "ما تقصده أمي أننا نحبك جدًا ولكنك بعيد عنا، فحبك يزيد في قلوبنا.. ألا تريد أن نقضي سويًا وقتًا أطول؟ أتحرق شوقًا لكي أريك ألعابي الجديدة التي اشتريتها لي.. أتعلم؟ لقد سميت إحداها على اسمك".

ابتسم وهرب بعينيه من عينيّ لينظر للأرض، قبل أن أوجه نظراتي لأمي وأقبل جبينها أيضًا، وأنا أقول لها بصوت مرح: "ما يقصده أبي أنه يحبك حبًا جمًا وأنه يعمل بشدة لكي يوفر لك معيشة تليق بك، ولكنه سيقتطع وقتًا من أجلك.. أليس كذلك يا أبي؟"

تنحنح أبي وقال بصوت خجول منخفض: "نعم.. نعم، أنا بالفعل قصدت هذا إلا أن التعبير خانني يا حبيبة عمري".

ابتسمت أمي برقة ووجهها يحمر خجلاً.. قلت في صوت عالٍ مرح: "أبي.. ألن تحتضننا؟"

احتضننا أبي بالفعل وإن خرجت بجسدي الضئيل من بينهما لأجعله يحتضنها بقوة.. راقبت يديها وهي تقبض على ملابسه بشدة وتضمه لها، كأنها كانت تحتاجه منذ زمن بعيد، وراقبته وهو يبكي في حضنها بخفوت، قبل أن تتلاقى أعينهما للحظات، فيتناول يدها ويرفعها إلى شفتيه في هدوء ويقبّلها وهو يقول: "أعدك أنني سأتغير بالفعل.. سأكون إنسانًا يليق بملاك مثلك.. سأعمل جاهدًا، إلا أنني سأضعك في الأولوية، وسأفعل المستحيل من أجل إسعادك، ولكن من فضلك لا تبكي، فدموعك أغلى من الكون بأكمله!"

أنهى جملته وهو يمد يده ليمسح الدموع التي تسيل من عينيها، قبل أن تبادره هي بقبلة خاطفة على كف يده من الداخل، ليستكملا بعدها تلك الضمة المفقودة منذ حين، قبل أن يسيرا إلى غرفتهما متشابكي الأيدي.. وقبل أن يُغلق باب الغرفة نظر لي وقال: "فلتذهب للنوم أيها الصغير.. ففي الغد يوم جديد".

أغلقت باب غرفتي ونمت على سريري وابتسامتي تتسع، وأنا أهمس لنفسي: "فعلاً في الغد يوم جديد".

إلا أنني لم أعي صدق هذه الجملة إلا بعد مرور أسبوع كامل.

(٢)

مرت الأيام في هدوء ويسر، وبدأ الزوجان يستعيدان جزءًا كبيرًا من بريق حياتهما المفقود.. بدأ كل منهما يشعر وكأنه في أول أيام خطبتهما.. مشاعرهما جياشة ودافئة.. محبان لا يجلسان إلا سويًا.. لا يمشيان إلا وأيديهما متشابكة.. الرأسان قريبان من بعضهما ليحدثها بكلمات الغزل ويحمر وجهها، فلا ترد عليه إلا بابتسامة خجول.. أسبوع كامل والبيت كالجنة.. أبي لا يقضي في الخارج إلا أوقات العمل، ثم يأتي لتتزين له وترتدي شيئًا من الأشياء التي نسيا وجودها.. صارا يطعمان بعضهما كل منهما بيد الآخر.. أهملاني تمامًا، وإن كنت سعيدًا جدًا بهذا الإهمال.. صار المنزل بقعة من بقاع جنة الله في الأرض.. الرقة والدلال والابتسامة الرقيقة هي السمات المميزة لأمي، بينما الحنان ودفء المشاعر والكلام الطيب صار يميز أبي وبقوة.. مرت الأيام، وفي يوم ما كنت نائمًا في غرفتي أحلم أحلام يقظة ببيت دافئ حنون، إلا أن ما سمعته من الخارج كان يناقض أحلامي تمامًا.. صوت بكاء حاد.. لقد كانا بالخارج يشتريان بعض الأشياء، فما الذي حدث؟ جريت أفتح باب الغرفة وأخرج لمخبئي الصغير بجوار الأريكة، وأقف متسترًا بالظلام.. كانت تبكي وجسدها يرتجف في قوة، وهو يصرخ بها بقوة: "ولماذا تمزحين معه من البداية؟"

تكلمت من بين دموعها: "أنا لم أمزح معه.. كل الأمر أنه مازحني فابتسمت، وكررها مرة أخرى فابتسمت ثانية".

"ولماذا تبتسمين لرجل غيري؟ ألا تعرفين أنني غيور؟"

"أعرف، ولكنني لم أفكر فيها من هذه الناحية".

"حسنًا، سأذهب للعمل، وعندما تعرفين من أين فكرتي فيها كلميني!"

"ولكنك عدت من العمل واعتزلت عمل الليل.. أين ستذهب؟"

" لا شأن لكِ، ولكي تعلمي، سأعود للعمل ليلاً منذ الغد.. بل منذ الآن حالاً!"

"اهرب، فلقد تعودت منك الهروب!"

وقف والغضب يغلي بداخله وملامح الثورة ترتسم على وجهه، قبل أن يلتفت في عنف وهو يصرخ بها: "ماذا قلتِ؟ تعودتِ مني الهروب؟!"

"نعم.. منذ حين توقفت عن مواجهة مشاكلنا وبدأت رحلة الهروب".

"وهل أنا من هربت من أهلي لنتزوج؟ هل أنا الذي قتلت أبي لأتزوجك؟ أنتِ إنسانة لا خير لك في أهلك، فلا تتوقعي أن يكون لك خير فيّ!"

"أتقول لي أنا هذا الحديث؟ أنا الذي بعت دنياي واشتريتك؟ سامحك الله!"

قالت جملتها الأخيرة واندفعت نحو الغرفة، فاندفع خلفها وأمسكها من فستانها وجذبها بعنف بالغ، ليختل توازنها قبل أن تسقط أرضًا ويصطدم رأسها بحافة بارزة من السيراميك.. تأمل جسدها الملقى أرضًا وبركة الدماء تتسع من حوله بشدة، قبل أن يدير نظره ناحيتي.. أسرعت لأدخل إلى غرفتي.. أدار وجهه وحمل رأسها وتأمل الجزء الذي شجته الصدمة من رأسها.. تأكد في لحظات أنها جثة هامدة.. كان الغضب يغلي بشدة بداخله، وهو يصرخ في الجثة: "لقد هربتِ أنتِ.. لكنني لن أسكت.. لقد أهنتني وهربتِ، ولكنني لن أسكت على الإهانة!"

حمل الجثة والدماء مازالت تتساقط من رأسها بقوة شديدة، قبل أن يضعها على الأرض مرة أخرى وهو يلمح باب غرفتي مفتوح.. مشى إليه وأغلقه بقوة وأدار المفتاح في القفل مرتين.. نمت مكاني وفي الصباح استيقظت على صوته.. باب الغرفة مفتوح.. خرجت لأجده ينظر لي وعلى وجهه ابتسامة حنون تزيد من قسماته وسامة.. سألته بصوت متهدج: "أبي، أين أمي؟"

"لقد ذهبت إلى بيت أهلها بعد شجار عنيف بيننا.. ولم تقل متى ستعود".

"شجار عنيف؟!"

"نعم، ألم تسمعنا بالبارحة؟"

هززت رأسي نفيًا، فسألني: "ولم ترَ شيئًا؟"

هززت رأسي بالنفي للمرة الثانية، فضمني إليه ورفعني لأجلس على قدميه، وهو يبتسم ويقول: "بيني وبينك، ولا أخفيك سرًا.. أنا المخطئ".

"إذن لتتصالحا".

"عندما تعود سنصبح أفضل من البداية بمراحل".

"حسنًا يا أبي.. أتعدني بهذا؟"

"أعدك.. والآن هيا إلى الإفطار".

"إفطار!! أنا أشم رائحة اللحم".

"نعم.. لقد حصلت لنا على صفقة جيدة.. المطبخ مليء باللحم، وسنأكل الكثير منه في الفترة القادمة".

جريت إلى المطبخ بسرعة لأجد ذات المنظر يطاردني.. المطبخ مليء باللحم المقطع.. سلة المهملات بها بضع عظام طويلة، والثلاجة مليئة باللحم.. قاومت إحساسًا بالغثيان، وأسرعت إلى غرفتي لكي لا أتقيء.. دخلت غرفتي وتجاهلت نداءاته وهو منهمك في مضع قطعة من اللحم: "منير.. أريد رأيك في نوع اللحم الجديد!!"

أغلقت غرفتي عليّ وأسرعت إلى سريري وأنا أبكي.. آلاف الأفكار تطاردني.. هل فشلت؟! هل سيتغير الواقع؟ سمعت حركة خافتة في الغرفة، فانتفض جسدي وارتجفت وأنا ألتفت لأجد طفلاً صغيرًا ممزق الأوصال ومخيط الجسد.. مهتك الشفتين والأجفان، والخيط الأسود يتدلى منهما في بشاعة.. كان يقف أمامي بصورته القديمة وهو يبتسم ويضحك بشدة، ويقول بصوت مليء بالفرحة: "هل تعتقد أن في فضولك متعة أم أن في هروبك خروج عن المكتوب؟ أتتذكر تلك الجملة؟ هل في هروبك خروج عن المكتوب؟ سنلعب نفس اللعبة مرة أخرى ولكن بقواعد جديدة.. لا أحد يهرب من سيد الجان.. لا أحد على الإطلاق يهرب من قبضتي".

أنهى كلماته وهو يضحك بهيستريا، والغرفة المغلقة تردد صوت ضحكاته البشعة مرارًا وتكرارًا..

"تمت بحمد الله"

الكاتب في سطور

محمد عصمت عبد الحميد ... روائي شاب من مواليد دمياط ... ١٩٨٨
شارك من قبل في الكتاب المجمع شيزوفرينيا الحب ... شارك في كتاب (الثائرون) العدد الثالث من اصدارات جمعية ادب الخيال العلمي ... شارك في كتاب (المنتصرون) العدد الرابع من اصدارات جمعية ادب الخيال العلمي ... حصل علي المركز الثاني في المسابقة الأولي لجمعية أدب الخيال العلمي عن قصة (الإختيار الخاطئ)

للتواصل مع الكاتب

https://www.facebook.com/mohammedesmaat



Noon_publishing@yahoo.com

٠١١-٢٧٧٧٢٠٠٧ ٠٢-٣٥٨٦٠٣٧٢-ت

في هذه الرواية الموترة للأعصاب، يأخذنا محمد عصمت بقلمه الراقي إلى رحلة شنيعة عبر الزمن والحاضر. فقد قرر أن يفاجئني ويفاجئ القراء بتوليفة منتقاة بعناية من مفردات الرعب المتنوعة. إن كنت تخاف من الجان.. فلا تقرأ هذا الكتاب. إن كنت تشمئز من أكلة لحوم البشر، والنكرومانسر.. فلا تقرأ هذا الكتاب. إن كنت تخشى الشياطين القديمة التي تلهو بمصائر البشر، وتترك ذريتها على الأرض لتعيث فسادًا.. فلا تقرأ هذا الكتاب. إنه رحلة مذهلة في عوالم مظلمة، ستترك بداخلك بصمة حقيقية وقشعريرة. فهل تجسر على القراءة؟

"عمرو المنوفي ـ كاتب روائي"

فكرة شديدة الغرابة نجح محمد عصمت فى أولى تجاربه الروائية أن يعبر عنها بأسلوب سلس جذاب

"أ/ أشرف العشماوى ـ كاتب روائي"

يمتزج الخطر بالتشويق في رواية من أجمل ما قرأت، قد ترى أن الرواية تتوغل داخل الخرافة، ولكننا إن دققنا في حياتنا فسنجد أن هن... ...شياء التي تُعد خرافية، ولكننا نهملها.. رواية تحمل المتعة قبل... ...ج لأن نفتح آفاق خيالنا دون أن نرتكز على سبب منطقي ... ...إلى المنطقية أستطيع أن أقول إن بين يدينا ما قد يكون م... ...لكن في النهاية هي تجربة تستحق أن نخوضها..

"عمرو الجندي ـ ك...





